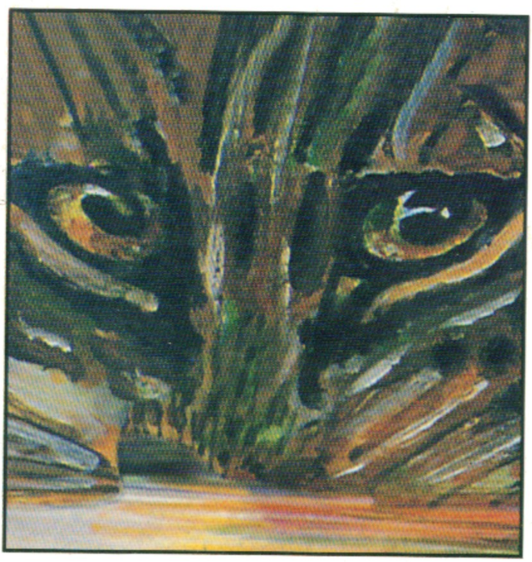
حيدر حيدر

الفهد

رواية



* حيدر حيدر
* الفهد
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الثالثة 2003
* الناشـــــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* التـــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب 30249

حيدر حيدر

الفهد

رواية

النشيد

الأرضُ ضيّقة كمساحة قبر
رخوةٌ كسبخ المستنقعات
فاخفضْ رأسك قليلاً، ولا تشمخ.
وجِساً تلفّت،
إلى اليمين واليسار
وإلى الخلف والأمام
فالموت يكمن في مخدع الطمأنينة.
في مكانك ترسّخْ،
سنديانة تمدّ آلاف الجذور
ترفعُ آلاف الأغصان نحو الشمس.
راقبْ عبور الطيور السود
والملوّنة،
وراقبْ البرقَ والمطرَ وفرسَ الإسراء.
الذين يشيلون أبصارهم كثيراً نحو الأعالي
يسقطون.

فراقبْ جلدَ الأرض أكثر.
ومحطّاتِ الموت الفجائي،
وانجُ إن استطعت في العالم الملوث.
العالمُ يطلبك
فتذكّرْ،
النسيانُ هو الموت
الغفوةُ الظليلة
هي الردى.
جليلاً متواضعاً، قِفْ فوق قدميك،
فوق المدار،
وغنِّ بصمت
للدمِ والوجعِ والرعب.
مهرُكَ البرقُ والمطرُ وأحلام المطاردة،
عمّقْ الحدسَ والألم وحيداً
واكتشفْ مجراتكَ الخاصة
وبعدها اسقطْ كنيزك
في أعماقٍ أرضك البكر
وهناك امكُثْ.
دعْهم يأخذون الدفءَ والمعاطفَ، جسدكَ والطمأنينة،
وفي الليل تحوّلْ
حلماً، رؤيا، صوتاً، صدى، ثورة،

واسكُنْ في الريح.
اخفقْ من الشرق والغرب
والشمال والجنوب،
طالعاً من جسد الأرض
عابراً في نسغ الصنوبر
مارّاً فوق جراح البشر.
هاجرْ.. هاجرْ.. هاجرْ،
كنورس البحار الذي لا وطنَ له،
وكزنجي متوحش،
ارقصْ رقصةَ الموت والفرح.
ذئبٌ أنت، تطلبه الأرض، والطمأنينة،
وهياجُ القبائل
فانهِ الرقصة أخيراً
واسقط في حفرتك الضيقة، ولا تتأوه.
ولادتُكَ
وتاريخُ الدم
وموتُك
وطنٌ رايتُهُ ممزقة.

1

قال الراوي: وجاء عام محل. لم تغلّ الأرض، وكان مطر قليل فوق سيغاتا.

قالت المرأة لزوجها الطيب: بقراتنا غلّ حليبها، وخاباتنا فارغة المؤونة.

تمتم الرجل صابراً: الله يفرج الكربة.

ـ لو تطحن لنا بقايا هذا الشعير!

ومع الغروب أسرج الرجل بغلته، وفوقها مدد كيس الشعير. حزمه بحبل أسود وامتطى الدرب إلى الطاحونة. وقبل أن يتوكل ذكّره ابنه الصغير: لا تنسَ الترموسة يا بابا!

كانت فرنسا قد رحلت. فرح كبير غطى المدن والقرى التي قاتلت الغزاة سنوات طويلة، وفوق المباني الرسمية والمدارس ومراكز الشرطة، خفق علم الوطن بنجومه الحمر التي صبغها الثوار بدمائهم.

وقال الزعماء الذين استلموا السلطة: لقد طردنا فرنسا!

شرق البحر الهادئ الذي شهد رحيل الغزاة، يمتد شريط القرى الوعرة.

هضاب ووديان تنبت صخوراً قاسية وغابات من السنديان

1

قال الراوي: وجاء عام محل. لم تغلّ الأرض، وكان مطر قليل فوق سيغاتا.

قالت المرأة لزوجها الطيب: بقراتنا غلّ حليبها، وخاباتنا فارغة المؤونة.

تمتم الرجل صابراً: الله يفرج الكربة.

ـ لو تطحن لنا بقايا هذا الشعير!

ومع الغروب أسرج الرجل بغلته، وفوقها مدد كيس الشعير. حزمه بحبل أسود وامتطى الدرب إلى الطاحونة. وقبل أن يتوكل ذكّره ابنه الصغير: لا تنسَ الترموسة يا بابا!

كانت فرنسا قد رحلت. فرح كبير غطى المدن والقرى التي قاتلت الغزاة سنوات طويلة، وفوق المباني الرسمية والمدارس ومراكز الشرطة، خفق علم الوطن بنجومه الحمر التي صبغها الثوار بدمائهم.

وقال الزعماء الذين استلموا السلطة: لقد طردنا فرنسا!

شرق البحر الهادئ الذي شهد رحيل الغزاة، يمتد شريط القرى الوعرة.

هضاب ووديان تنبت صخوراً قاسية وغابات من السنديان

البلّوط والبطم، والريحان والقطلب، وبين هذه الهضاب وفي السفوح الخضر، انتثرت قرى الفلاحين الذين قاتلوا الغزاة بقسوة لا مثيل لها.

وإذ انتهت الحرب، لم يجنوا غير مخافر الشرطة الوطنية. وبقي الجوع وصلواتهم السرية للمطر، وطرقاتهم التي تشقها أقدام دوابهم. واستثمر زعماؤهم النصر.

كانت سيغاتا واحدة من القرى المرمية بإهمال خلف شريط الجبال القاسية، يعمدها الضباب في الأصباح الندية، وفوق ذراها ينهد الثلج في الشتاءات. رعاتها وحطّابوها يغنون للريح والمواسم أناشيد شعبية مفعمة بالحرية والحب والفروسية القديمة.

ولو بحثت عن شاهدة للثوار الذين قتلوا زمن الحرب، لأشارت لك الصخور والدروب والحفر التي شكلتها الصواعق والانهدامات الطبيعية، ولغنّت لك الأشجار بنواح قديم عن الذين ماتوا كيلا تسقط هذه القرى مرة أخرى تحت أقدام غزاة جدد.

لكز الرجل دابته على الدرب الضيّقة. وفي بداية المساء راح صوته الوحشي يجرح الليل بموال عتابا حزين. كانت الدابة تخبّ على الدرب المحجرة، والرجل خلفها يخب هو الآخر في أول ليل عذب ساطع النجوم، ومن حوليهما قامت أجمات السنديان وغيضات العليق، وكانت السواقي الجافة صامتة، وسُمع صوت صرصار، لطأ في قفل شجرة تين، امتد صوته شجياً في رهبة الليل.

ـ أبو علي. لماذا البارودة؟

سألت شفيقة بخوف حذر.

ـ للذئاب وضباع الليل.

ـ لكنها بارودة حرب.

ـ نحتاجها. هل أنا الوحيد الذي يملك بارودة في هذه الديار؟

لم تكن شفيقة تدرك لماذا احتفظ قسم من الثوار الذين انتهوا من الحرب بهذه البنادق المخيفة في أزمنة السلم. ومع الزمن خيل إليها أن هذه البندقية تشبه أفعى تسكن السقف، وأنها ملعونة كالحية الرقطاء.

كانت المخافر التي ورثوها، هي السلطة المباشرة التي تنفذ الأوامر، وتتحدث عن النظام والأمن والهدوء، وباسم هذه المفاهيم القائمة كانت تحمي الذين ورثوا الوطن بأراضيه ودوابه وشجره وبشره.

وآن كان الثوار يُقتلون وتسيح دماؤهم فوق الصخور والدروب الوعرة، كان الوارثون الأوصياء يسجلون في دوائر الدولة، الأراضي والعقارات، ويقتسمون القرى في سرية تامة بينما جماهير المقاتلين الفقراء يتحولون إلى أجراء ومرابعين وخدم لهؤلاء الذين استثمروا النصر وسرقوه في الغفلة.

صمت غناؤه في الليل الممتد، ثم تطلع نحو السماء المرصعة بالنجوم، وهفت نفسه للتبغ فتناول علبة دخانه العربي وراح يدرج سيكارة منها. من أجمة مجاورة فرّ حجل مذعوراً، تبعه آخر وآخر، فجفلت الدابة، رفعت أذنيها ثم توقفت. ضربها فحرنت عن المسير، وإذ مشى أمامها راحت تدب بخوف وبطء حتى وصلا.

- إذا تركت البيت مرة أخرى. أتأخذني معك؟ قال علي.

- لماذا يا حبيبي.

ـ لأقاتل معك.

ـ انتهى القتال يا حبيبي.

ـ لماذا هذه البارودة إذن؟

وأشار إلى السقف حيث ترقد الأفعى الملعونة.

قال أبو علي: هذه للثعالب والذئاب يا علي.

وإذ ذاك غنى للصغير: نمْ يا حبيبي نمْ.

الفأر في السقف نام.

نمْ يا حبيبي نمْ

تاجبلك فرخ الحمام.

ونام الطفل حالماً بفرخ الحمام الطائر من بيت إلى بيت، والذي يؤتى به من أجله وأجل الأطفال الجياع في جميع الليالي، ويظل يطير.

بين الغفلة واليقظة، سمعت صوته يوقف البغلة أمام البيت فنهضت. تحرك الصغير فغطته، وفي طريقها إلى الدار فتلت أبزيم سراج الكاز فأضيء البيت الترابي. تناولت السراج معها وشقّت الباب.

ـ أبو علي!

ـ كنتِ نائمة؟

ـ تأخرتَ. وخطت نحوه.

كان الرجل يحل الحبل: ترموسة علي أخّرتني. تعالي اقلبي الكيس على ظهري. وأدار ظهره ثم حناه: يا الله شفيقة.

أزاحت المرأة كيس الطحين، فتلقاه مسنداً قاعدته على عصاه الغليظة ودخل به البيت وهي تتقدمه بالسراج.

حين تمدد على الحصير بدا وجهه تحت الضوء الخافت مموّجاً باحمرار برونزي. عيناه لامعتان وشعر صدره الأشعث ملوث بالطحين والغبار. رمى حذاءه، ونزع كوفيته السوداء وعقاله، وشمر عن ساعديه ليغتسل من وعثائه.

وكجميع الفلاحين الشباب المعتزين برجولتهم، بانَ وشم سكين يتمدد على عضلة زنده الأيمن، رمزاً رومانسياً للفارس الريفي، وعلى الأيسر قلب يرمز للمرأة التي يحبها، ويقتنص الوحوش من أجلها لترضى.

اغتسل وحمد الله. قدمت شفيقة العشاء بعد أن ربطت الدابة وأطعمتها. وعلى النار وضعت إبريق الزوفا.

كان أبو علي مرابعاً يحرث الأرض ويعشبها ويبذرها ويحصدها، وفي نهاية الموسم يقدم ثلاثة أرباع المحصول للآغا، ويبقي لعائلته ولبذار الأرض الربع الباقي.

ولم يحدث شيء جديد بعد الثورة. الفلاحون الفقراء الجهلة والأرض والتعب ومرارة الأيام في ضفة، والملّاك والقيمون المشرفون والراحة والسيطرة والدرك في الضفة الثانية.

آلاف البيوت المسقوفة بالطين والحطب. المزابل والمرض وبعض الحيوانات، كلها تنمو فوق أرض خصبة تفيض بالينابيع والخضرة، ورجال محنيّو الظهور هدّهم السغب وفقدان الأمل، تائهون في ذلك العالم الأخضر القاسي، يمضون أيامهم بين الأرض والبيت، معتقدين خطأً بأنهم يحيون كالبشر.

القناعة كنز لا يفنى. ويسبّحون بحمد الله والشيوخ،

ولمزاراتهم يرفعون التمتمات السرية وروائح البخور. هكذا هبط الدهر عليهم فاستكانوا.

في وجه شفيقة استكنّ حزن مكتوم. على خدها وضعت راحة كفها وراحت تنظر إلى رجلها وهو يأكل.

- هاتي الزوفا. بدأت تغلي!

ولمح في وجهها غيمة حزن: أنت حزينة؟

لم تجب. أنزلت الإبريق وتركته يبترد.

- لماذا أنت حزينة؟

- لاشيء.

- قولي!

- جاء الحارس وسأل عنك.

- ماذا يريد؟

- قال: إن الآغا يريد حصته من محاصيل السنة.

واكفهرّ وجه الرجل. قدمت المرأة كأس الزوفا ثم أردفت: سيمر غداً علينا.

كان بخار الزوفا يتلوى خيوطاً هلامية ساخنة، تلتقي بالخيوط الحارة التي تصاعدت من أعماق الرجل لتتشكل غضباً على جبهته الصارمة.

وحوّم صمت. بلا وعي طرفت عينا الفلاح نحو السقف. رفرفتا فوق وجه الطفل النائم، وعلى وجه شفيقة استقرتا.

- كادت الزوفا تبرد.

واتسعت حدقتاه. شم رائحة شيء كريه. أبعد طبق الطعام القشي، فاندلقت الزوفا وسالت على الأرض.

في جميع البيوت كانت رائحة الطعام نتنة كجثث منشورة من ألف جيل، وأحد لا يقول شيئاً. وفي اعتياد زمني رسخ فوق قبور حياتهم المشوّهة، كانوا يستنشقون روائح أيامهم المنخورة. الأيام المتوّجة بالتوجس والخوف والجوع والصلوات والطمأنينة الكاذبة.

وطوال الليل لم ينمْ. كانْت عيناه معلقتين في بؤرة ما من السقف وكانت شفيقة تنهنه بصمت.

2

قال الراوي: وجاء صباح متعب من صباحات الخريف. كانت الريح تعول كذئبة فقدت أبناءها في وديان سيغاتا. وفي السفوح أُشرعت أغصان أشجار البلوط والزعرور عارية، بعد أن حملت الريح أوراقها إلى الممرات والسواقي. وفي الشرق حجب الغيم المطارَد بالريح، شمسَ الصباح.

على حدود الأفق وتحت ظلال الغيم بدت صخور المرتفعات متشحة بسواد يحاكي أجنحة الشحارير. وتحت هزيم الريح الشرقية الهابّة، توجع ورق السنديان وجِفاً.

مع استيقاظ الأسرة الصغيرة، سمع صياح الديكة في القرية مختلطاً بخوار البقر، وثغاء الجدايا التي انفلتت نحو مراعيها.

كانت المخلوقات تحتفل بالصباح وتسبح باريها في هذا العالم الندي السمح، بلغتها الخاصة.

نحو العين حملت المرأة جرتها على كتفها، وإلى الحقول والغابات سرح الرجال والنسوة. متثاقلاً نعِساً نهض الفلاح المهموم. تثاءب ثم فرك عينيه بظاهر كفيه، وعلى أرض البيت الصفراء درج الصبي. سأل أباه عن الترمس، فأشار إلى صندوق أمه المطرز بالمخمل، وراح الأب يعد الزوفا.

حياة صغيرة محدودة لا جديد فيها تنمو فوق أرض قطرها

لا يتجاوز البيت والحقل والطاحونة والعين، لكنها رضية بعيدة عن العكر. ومن شاطئ البحر حتى أقصى القمم الشرقية البعيدة، كان العالم الفسيح يضيق على نفسه حتى يبدو من الداخل في حجم الشرنقة. الدهر السكوني الذي هبط فوق ذلك النمل الدائب المنهك تحجر تاريخاً طويلاً من العزلة والإرهاب، ربما قبل أن تطأ أول قدم تركية تلك الأرض.

وقيل عنهم: احتموا بالجبال والمغاور هرباً من الاضطهاد العثماني.

وكلام آخر: هاجروا من المغرب وضفاف النيل والفرات واليمن، هرباً من الجور والمطاردة السياسية ليقيموا طقوسهم هنا في الخفاء بعيداً عن المراقبة والقتل.

وقيل بأنهم بقايا الذين نجوا من المذابح التي صبغت تاريخ العرب في فترات التمزق والانقسام. غير أنهم الآن هنا يزرعون ويحتطبون ويغنون. وفي الليالي يسردون الحكايا ويحيون الأعراس ويذكرون الله دائماً.

سمع الرجل وقع حوافر حصان. فتح الباب فأطلّ وجه الحارس بكوفيته البيضاء. كانت عصاه تتقدمه وفي محياه لاح غضب رسمي: مرحبا أبو علي.

- مرحبا.

واحتفى به. دعاه إلى الجلوس فاعتذر. وطلب إليه أن يشرب شيئاً من الزوفا فامتعض: لدي عمل كثير، سأمر على المرابعين في بعض القرى. ألم تقل لك أم علي؟

- خيراً؟

- مررت أمس فلم أجدك. الآغا يريد حصته من غلال السنة.

داهم الرجل ضيق: ولكن أنت تعلم أن العام كان عام محل.

ـ أنا رسول والآغا مصرّ على حصته.

ـ البارحة طحنّا شعيراً للعائلة بدل القمح.

ـ هذا كلام قديم. إما أن تقدم الحصة أو تُسحب الأرض منك.

بدأ شيء حاد يصعد إلى حنجرته. قال ببحة غضب مكتوم: إذا لم تعطِ الأرض ما ذنب الفلاح؟

ـ ولكنك تعرف أن الفلاح أحياناً يسرق الأرض ويرمي ذلك بظهر المطر والمرض. نحن نعرف بعضنا يا بو علي.

كتم الرجل غيظه، وواصل الحارس حماقاته: كلكم حرامية. واحدكم قبل أن يُعطى قطعة أرض يصبح كلباً، وإذ يُعطى ويشبع يصبح نمراً.

وانطلق يتوعد وهو خارج: إذا لم تُدسْ رقابكم لن تصبحوا بشراً. سوف نرى. سوف نرى... وبصق.

ناداه أن يقف. التفت الحارس إلى الوراء. تقدم شاهين نحوه وهو يشتعل غضباً: أنت ابن زانية. ولدتك أمك على سكة فرنسا. قد نكون فقراء لكننا لسنا كلاباً يا ابن العاهرة.

وإذ حاذاه أخذه بقسوة قبضتيه. هزه ثم رفعه نحو الأعلى وطرحه أرضاً. ضربه بوجع حتى صرخ فالتمّ الفلاحون وخلّصوه: شاهين هل جُننت؟

ـ ألم تسمعوه؟ قال عنا إننا كلاب نزحف على أقدام الآغا!

أبعدوه، فصرخ: يا ابن الزانية قل لابن الكلبة آغاتك لا حنطة له عندي وليبلّط البحر ويشربه.

واعتراه هيجان طفا على وعيه. كان يرتعش ويغلي كثور

محموم هائج. دفعه الفلاحون إلى البيت ليسكن، غير أن صدره كان مايزال يخفق بالحنق والغضب.

لحظة انفجار واعية، تموّرت داخل الشرنقة الصغيرة. انحصرت فأُخمدت، ومع الزمن بقيت شرارة أولى تحولت إلى ذكرى وحكايا وأسف عميق، ولأنها اندلعت قبل أوانها لم تحرق الغابات لتطهر الأرض والنفوس.

وقت الظهيرة جاء الحارس والآغا والدرك، واعتُقل شاهين.

وفي مخفر الشرطة ضُرب ذلك الفلاح الأعزل بالأيدي وكعوب البنادق والسياط وأحذية الجند. وإلى جدار المخفر أُوثق، وصُلبت يداه، ثم ضُرب أيضاً حتى بلله الدم.

لم تكن شرطة فرنسا ولا درك بني عثمان هي التي ضربت شاهين بأحذيتها هذه المرة، على صدره وظهره ومعدته بوحشية ولؤم. ومع ذلك لم تسقط من عيني ذلك الفلاح المسكين دمعة واحدة.

3

عند الغروب قصف الرعد سماء سيغاتا. ازداد إعوال الريح وراح برق كالجراح يشطب وجه سماء اكمدّت.

وفي أقصى القرية ثغا جدي هارب، هرول وراءه طفل حافي القدمين، تعثر بحجر فسقط على أديم الأرض.

ـ الله معك! صرخت الأم.

سرب من الغربان السود عَبرَ الفضاء، وعلى الشير المطل على وديان الضيعة نعبت بومة.

ودخل شاهين ساحة الدار. خطف الطفل ودخل البيت.

ـ شاهين!

صمت. كانت سترته ممزقة، ملوثة ببقع لدم الجامدة، وعلى وجهه شطوب وكدمات، وفوق صدغه تجمدت خيوط أرجوانية.

ـ ماذا فعلوا بك؟

وما نبس.

داخل البيت خطا خطوات سريعة. وبخفة نهد اختطف البندقية من السقف. حوّمت عيناه في زوايا البيت. رفع الطفل إلى صدره، وبينه وبين أمه تناوب النظر، وارتمى حزن عميق.

ـ ضربوني على رأسي كثيراً يا شفيقة.

تنهد وضغط فكيه بألم: اعتني بعلي من بعدي.

وضع الطفل على الأرض، فهجمت الأم تنشج. جمعهما إليه، وفي لحظة تماثل بقايا العمر غاب في رائحتهما.

- شاهين!

وانشبحت فوقه. كان واقفاً تحت سقف بيت موشك على السقوط، مسحوقاً بألم لا حدود له، وفي عينيه طيوف تمرد إنسان تخطى لحظة التاريخ وسكينة الزمن.

- شاهين يا أب اليتامى.

وشال المطر في الخارج، موقعاً رنيناً خصباً وحزيناً.

وإذ همَّ خارجاً أمسكت به: لا... لا يا شاهين.

نترها، واستقبل الريح والمطر، مولياً وجهه شطر الوديان البعيدة المظلمة.

ليلاً سُمع صوت الرصاص يدوي لأول مرة بعد انتهاء الثورة، عبر الوديان التي ظُن بأنها صمتت. وفي المساء نفسه سحبت الشرطة قتيلين، أرداهما الرجل الهارب المطارد.

داخل البيوت الفقيرة التعبى، سرى النبأ كشرارة هلِعة. وعاش الفلاحون أطول ليلة بعد الحرب، وإذ تجمعوا في الليل قالوا: ما هذه المحنة؟

كان ذلك بداية غمّة. وميضاً لتاريخ فج وغامض حرّكه فلاح وحيد مُهان.

4

البراري مرة أخرى، والغابات، وقامات الصخور الرمادية. فرنسا والثورة. الشرطة الوطنية والفلاحون الأتقياء، وهذه الصدمة المباغتة.

لماذا؟

أتنتش الآن بذرة واحدة في أرض جفراء. وإذ تشق لنفسها ثلماً كالجرح لتخرج من يحميها من القطع؟

وهل تراه زمان الحرث والبذار جاء، أم أن زمن النضج لم يحن بعد؟

ولأنه قال: لا. هبط عليه غضب الأرض وإرهاب الوطن.

ولكن ماذا لو صرخت جموع الفلاحين بصوت كالرعد: لا؟

كان شاهين يعترض زمنه وهو يخطو أولى الخطوات في مسيرة الانعتاق والتخطي، لكن...

في الليلة التي تلت صوت الرصاص والقتل، لم تنم سيغاتا. خيم الدرك على أسطح المنازل، وعلى الدروب، وراحت حوافر خيلهم تضرب ساحات الدُّور.

فتشوا بيوت الفلاحين، وخوابي المؤونة، وحظائر الحيوانات. وخلعت حراب بنادقهم صناديق العرس الموشاة بالمخمل، وأصاب الأطفال والنساء ذعر شديد.

وفي بيت المختار جُمع الرجال وقال قائد فصيل الدرك: بالأمس استُشهد اثنان من أبناء الدولة برصاص شاهين بعد فراره من السجن. منذ اليوم يجب أن تعلموا أن هذا المجرم خارج عن القانون والعدالة تطلبه. أنتم مسؤولون عن إيوائه وكل من يحميه سيلقى عقابه. لقد جرّ عليكم بلاء شديداً فتحسسوا رؤوسكم.

وعلى وجوه الرجال ران وجوم.

المختار هو الذي تنطّقع: سيدي. نحن لا نقر ما فعله وسيغاتا بريئة مما فعل.

ورد قائد الفصيل: تتبرؤون منه؟

أجاب المختار وحده: نتبرأ.

ـ طيب. ساعدونا إذاً في إلقاء القبض عليه.

خرق الوجوم صوت فلاح مخنوق النبرة: لكن الدولة قوية وهو رجل لوحده.

ارتجف قائد الفصيل حنقاً. جمع قبضته اليمنى ورفعها في الهواء فارتعشت: الدولة ليست عاجزة، لكن البيت الذي يؤويه ـ أقسم بشرفي العسكري ـ سيحرق. هذا إنذار لسيغاتا بأجمعها. اعتمر قبعته العسكرية، ونهض بخيلاء رجل مسؤول. شقّ جموعَ الفلاحين المبهوتين الصامتين، ومرق من الباب.

داخل وخارج القرية تفرق الدرك. وعلى مفارق الطرق وخلف الصخور كمنوا. وفي بيوت الفلاحين نام قسم منهم.

استوطن الذعر بحيرة الطمأنينة المستكنة، وطوال الليل لم تكفّ الريح عن الأنين، وفي النفوس التي ارتضت أقدارها منذ آلاف السنوات وارتضت النفي، زفرت ريح أخرى محملة بالخوف من الكوارث المقبلة.

فوق التلال القريبة أقام الوحش مملكته الجديدة. وسادته أرض رطبة وعشب، وجدرانه الأشجار والصخور، وسقفه السماء العارية.

وها هي ذي سيغاتا تحت قدميه. بعيدة، قريبة. مملكة محرّمة وبيت من تراب وفقد.

وتنهد بحرقة.

شفيقة وعلي والعالم يدور. مخاوف الإنسان الذي اخترق المألوف والزمن. الأفعى كانت السبب:

- أبو علي لماذا البارودة؟

- أم علي لماذا يُضرب الإنسان على رأسه؟

المسامير الفولاذية الحمقاء، امتدت في الليل أفاعي صغيرة سامة وعشوائية. ضربت جدار الرأس فشجّته. دخلت الرأس فعطبت الأعصاب.

ثم دار العالم قرصاً من نار، توهج وانطلق نحو سفوح الألم والمناحة. مرة... ومرة... ومرات. سقطت الأعقاب حتى سال الدم. أعقاب وقعت بقسوة غبية حتى ساح الدم داخل الرأس وتلوث الدماغ.

- لماذا يُهان الإنسان في العالم؟!

والآن الهدوء ولا جواب. الليل والحجارة الصامتة، وصوت هزيم الريح.

قال الراوي:

وأطل صبح جديد آخر، فرش المنحدرات والقمم بضباب

ثلجي، مفعم برائحة الأرض وأوراق الشجر، والتوجس، راح يسبح هادئاً فوق الصخور وذرى الأشجار. وتحت الضباب كانت القرى تستلقي متشبثة بالسفوح كأنها جزء من الصخور الطبيعية الضائعة عبر ذلك العالم البري. العالم المشحون بالحب والكراهية، بالقتل والسلام العفوي.

على حُفر الصخور الراشحة بالمطر، تجمعت برك المياه، ومن وعر مجاور سمع قرح طيور الحجل يغمر رهبة الوديان. بحذر يخرج شاهين من وكره. يتنصت ثم يعتلي صخرة وعلى جدار الصخرة تحت متناول يده، وكأ بندقيته، وبدأ يدرج لفافة تبغ.

حلم هذا أم حقيقة؟ كيف حدث ذلك؟ ولماذا جرت الأمور هكذا سريعة، مباغتة، مؤلمة؟

أمام عينيه لاحت سيغاتا. كان يراها. سطوح منازل باهتة يرتفع منها دخان الحطب. قدور الطعام تغلي فوق النار. وها هم الفلاحون الصّحاب يصعدون الدروب خلف أبقارهم، والرعاة يسوقون الماعز إلى سفوح الأودية الخضراء. وأم علي مع صبيها وحيدة تبكي. وفرك صدغه. الصباح ساكن رطب، وسيغاتا تحرث أرضها، وصوت ثغاء الجدايا والأغنام الداشرة في الوهاد أغنية حياة كانت رضية، نشيد ريف هزم الغزاة وقهرهم، والآن عاد إلى ما كان عليه. ما تبدل هو وجه الغريب، الذي لم يأت هذه المرة من وراء البحار، لكن شاهين وحده الذي وقع في مصيدة الغزاة الجدد. لماذا حدث ذلك؟

طنين خافت، واهن الصدى وبعيد، كان يُسمع في الأفق، يلوح شبيه غيمة رمادية بحجم الطبق، تحمل صدى الإرهاص، وبشارة الأرض المحملة بالنذير. غيمة فيها مطر وفيها ودم، لكن الزمن كان صيفاً.

- شاهين يا أب اليتامى!

- شفيقة. يا أرضاً مستباحة!

أتراه القتل هو البدء على أرض مشروطة العلاقات؟

ولماذا حدث ذلك الشيء المؤسف فوق أرض سيغاتا المسكينة؟

ونحو القرى المجاورة انحدر الفهد الجائع يطلب طعاماً.

- طعام لعابر سبيل هل لديك يا خالة؟

- على الرحب والسعة.

وداخل البيت غابت المرأة. جاءت تحمل على طبق من القش أرغفة حنطة مخلوطة بالذرة، وصحناً مليئاً باللبن.

وضعت الطبق أمام الغريب الجائع: تفضل.

كانت المرأة تتفرس هذا الرجل القصير، النحيل. شعر ذقنه الذي استطال، وكوفيته التي تلثم بها. عيناه الصقريتان تدوران بذعر خوف المفاجأة. وجلس على المصطبة تحت عريشة كرمة، فوق جرن من حجر صلب أسود وراح يأكل: من أين الأخ بالسلامة؟

- من بلاد الله الواسعة.

- درّاب. صياد. أم...

- صياد.

قالت المرأة: ولكن أين بارودتك؟

أشار بيده نحو الأدغال: مع صحابي في الجبل.

أحس بأن المرأة لم تقتنع. استطرد: هل لي أن آخذ لهم بعض الخبز؟

قالت المرأة: خذ ما تشاء يا خوي. هل هذا يكفيهم؟ انتظر سآتيك ببعض التين اليابس.

كان شاهين قد ازدرد رغيفين مع اللبن. وجاءت المرأة بقرصين من التين الجاف، دسّهما مع الأرغفة في عبّه وودع المرأة خارجاً من طرف القرية.

كانت البارودة مخبأة في جوف سنديانة قريبة، علقها على كتفه وغذ الخطى نحو المرتفعات البعيدة.

بعد أن وزع قائدُ فصيل الدرك، المهامّ في سيغاتا، وزها ببزته نافجاً عنفوانه هادراً كلماته القاسية في وجوه الفلاحين الفقراء، نده فلاحاً مقرفصاً على حجر ليمسك له حصانه الأصهب. وإذ اعتلى فوق الحصان صاح بعريف الزمرة: كن حذراً، هؤلاء أولاد حرام، وشاهين غدار. اتصل بي حين يستجدّ شيء لديك. كان قائماً الآن فوق صهوة الجواد، شبيه تمثال جندي روماني نصِب في إحدى الساحات شامخ الرأس، معتمراً. منفوخ الصدر عريضه. تُزين يسرى بزّته العسكرية أوسمة ذات بريق. وتحت جنبه فوق السرج بندقيته الفرنسية المائلة.

لوّح سوطه الأسود مرتين في الفضاء، وبخفة فارس يتقن الإقلاع، لسع الجواد على مؤخرته. شب في الفراغ قليلاً بقائمتيه الأماميتين ثم صهل وخب، وإذ قطع مسافة قصيرة لسعه بالسوط أيضاً، فراح ينهب الدرب باتجاه الناحية.

في مركز الشرطة سطّر القائد تقريراً عن الحوادث التي جرت غب اعتقال شاهين وهربه حتى مقتل الشرطيين، والإجراءات الفورية لمطاردة الخارج وتعقبه.

وفي أسفل التقرير ضمّن ملاحظة صغيرة: «لمسنا استنكاراً واضحاً من الفلاحين، واستعداداً منهم للتعاون معنا في القبض

عليه. بثثنا العيون في كل مكان بحثاً عنه. عاجلاً أو آجلاً يمثل بين أيديكم حياً أو ميتاً».

بعناية تامة طوى التقرير. وضعه داخل مغلف ثم ألصقه، وأعلى زاويته اليسرى كتب:

«سري للغاية يُفتح بالذات».

صاح بشرطي يثق به: جهّزْ حصانك. هناك مهمة سرية وعاجلة للقائد العام ستوصِلها اليوم.

- حاضرْ سيدي.

حيّاه واندفع مهرولاً.

5

قال الراوي: وكان ملِكاً للهلع والقفار، وكان أمير نفسه لكنه لم يكن يستطيع العودة إلى البيت.

ومرت أيام، يوم إثر آخر، وصديق الوحش والليالي المصدية بالصمت والحنين يجهد في اعتياد حياته الجديدة والتآلف مع منفاه.

عرف كهوف الجبل ومطلّاته، مآرزه وزواياه المهجورة والمشرفة على الدروب والقرى. وفي مكان واحد لم يقطن أو يستقر.

وعرف الجوع والبرد والوحشة. ومع الزمن بدأ يحصد أعشاب البر ويأكلها. يتدفأ بحطب الغابات، ويشرب مياه العيون والسواقي.

وإذ تمضي الأيام يمضي الدرك في أثره. قرية، قرية، لكنهم لا يجرؤون على الاقتراب من مملكته الوحشية.

كانوا يخلقون لأنفسهم يقيناً بأنهم سيصادفونه يوماً على الطرقات المأهولة، أو داخل أحد البيوت. فيشعرون بالراحة لهذا اليقين الخادع الذي يحميهم. وكانت القرى الآهلة وبيوت الفلاحين تظللهم بالأمان والمؤونة وتقيهم من الوعثاء والسغب.

وفي القرى البعيدة نشروا الأخبار عن قاتل يروّع الآمنين.

يهبط في الليل مسلحاً ملثماً، يغتصب ويقتل ويسرق. وحذّروا من إيوائه، وطلبوا الإخبار عنه إلى المخافر القريبة.

في كل مكان وزّعوا أوصافه وصوره، حتى صار اسمه رمزاً للفزع والموت، ولكن فيما بعد عُرف كل شيء. صار شاهين شيئاً آخر في ضمير الشعب.

خطوات... خارج مملكة الأمن. نحو مدار الموت والكمائن، والليلة صافية كنبع ماء يبرق حصاه الأبيض. والريح هبوب خفيف عذب تتسرب إلى الضلوع حاملة روائح الغائبين. عبق امرأة وحيدة مكسورة الضلع.

خطوات حذرة وفدائية.

- إلى أين؟

- إلى البيت؟

- والمتربصون هناك؟

- نوَّم أغبياء. يشربون ويأكلون ولا ينتظرون قدوم أحد.

وعن بعد تلوح بوابة البيت المخلعة، مزاراً محرماً في غسق عاشق. بدت كسمّ الخياط، خطوات الفلاح اللامبالي تمد الخيط نحوها، في ترقب من يسير فوق صراط الجحيم والجنة.

- شاهين!

وتتوقف الخطوات على العتبة. يسقط مغزل الصوف، وترنو المرأة إلى الرجل الغريب الواقف، مبهورة لا تصدق.

- شاهين. لا سواه.

وينقل خطوات أخرى. تهجم المرأة فاتحة ذراعيها، ويلتحم الوجهان والصدران والأذرع ثم خوفاهما.

وتجهش. تتمسح بثيابه، برائحته، وجاهدة تحاول الإمساك بحياة أوشكت أن ترحل.

ـ أصحيح أننا صرنا غرباء يا أبو علي؟

ـ لا تبكي.

ـ ولن تعود بعد اليوم إلا هكذا؟

ـ هذا مكتوب ومقدّر علينا.

ـ هيهات... هيهات. الزمن فرقنا.

من فتحتي أنفه تخرج حسرة نمت في صدره:

ـ ما نفع الدموع يا شفيقة!

ومن خلل العبرات سألته: كيف نفذت منهم؟

ـ نفذت. واستطرد: علي نائم؟

أومأت برأسها. وبطرف فستانها راحت تمسح الدموع.

كان الطفل مستلقياً في هدوء ملائكي. عيناه مغمضتان، وقلبه الصغير يخفق خفقان قلب عصفور. وفوق جبهته السمراء انسدل شعره الفاحم.

قبّله. ومرغ وجهه الملتحي بعينيه وشعره وأنفه. شم رائحته. وبصمت بكى.

كانت المرأة تراه ودمعها مايزال ينهمر وتمتمت: تيتم علي يا شاهين والناس هجرونا. آه. آه...

سألها عن الأرض، وعن حياتهما في غيابه، وسيغاتا، والناس، والدرك.

وإذ جلس على الحصير ماداً ساقيه المتعبتين، جلست قربه

تتملاه بوجهه النحيف وذقنه السوداء الخشنة، وعينيه وقد غار فيهما الفرح القديم. روت له بأن الأرض بارت بعده، والضيعة صارت تنغل بالدرك ليلاً ونهاراً. أقاموا فيها وأكلوا دجاجها وسمنها ولم تترك خيولهم طعاماً للمواشي. المختار مع جماعته يقولون: شاهين جلب الويل لسيغاتا وللفلاحين وعليه أن يسلم نفسه. والشباب يقولون: ما ذنب سيغاتا. يريدون شاهين! شاهين في الجبال وليس هنا. إنه هناك يتحداهم أن يقتربوا منه.

وطلب طعاماً وزوفا فأحضرت له ما في بيتها. وعلى النار وضعت إبريق الزوفا.

أكل بلذة ونهم: طعامك لذيذ. من زمان ما ذقته يا شفيقة.

ونهنهت المرأة: من يوم ما مرّت الغربان فوق تلالنا.

- اذهبي إلى الدار وتنصتي.

وما كادت تخرج حتى وثب إلى السقف. تناول صرة خرطوش غطاها الغبار، وبسرعة دسّها في صدره.

راحت الزوفا تجيش في الإبريق. وشاهين يتملى البخار، فيفغم أنفه. سبح ببصره في البيت، والذكريات القديمة. البيت الذي بناه من حجارة المقالع، وخشب الحور والسنديان. شفيقة طيّنته معه. حملت جرار الماء من العين. ومن الداخل رشمته بالحوار الأبيض المبهج، وإذ يقبل موسم الأمطار كل عام كانت تدور حوله، تطيّن ما تقشر من جلده، وتدحل سطحه بعد أن تفرشه بالتبن وخفيف المياه. وإبان ذلك تغني بصوتها الناعم الذي يسحب القلب. لقد صمت غناء شفيقة الآن كما يصمت هزار الكروم بعد غياب رفيقه.

شال الإبريق عن النار ووضعه على الأرض ليبرد. كانت

أظافره قد استطالت واتسخت، وكذلك جسده المنهك، وتمنى لو يغتسل بالماء الحار المعطر بورق الغار، تدلك له شفيقة ظهره وكتفيه ورقبته، وبعدها ينام مطمئناً في حضن زوجته الجميلة، فوق فراش دافئ مريح ليس من حجر وأرض رطبة.

مزّق أحلامه توقّع خائف نبت خارج البيت، انتشر فوق أحلامه وأمانيه الصغار. اعتكرت طمأنينته وأحس أنه في عالم مهدد بالمداهمة والحصار في أية لحظة ولم يكن هذا بيته القديم. البراري وحدها مرافئ الذين فقدوا أوطانهم. ولكن إلى متى؟ ولماذا يخرج الإنسان من بيته ويُرغم على ألا يعود إليه؟

في صحن كبير صبّ ما في الإبريق، فانتشر ضباب الشراب ورائحته العطرة المغمسة برائحة تراب الأرض، فعاده للحظة أمانه القديم.

ما كان بوده أن يحدث ما حدث. غير أن الإهانة كانت قاسية لا تُحتمل. لو ارتضاها لفقد شيئاً من إنسانيته. قال له ذلك: الصخر الذي لا ينكسر إلا بالقوة. والأرض التي لا تنبت زرعاً بلا مطر. والريح التي تثور في ليالي سيغاتا، والثور الحرون. وهذا الطائر الذي لا يني يخفق بجناحيه ويقرع تحت سماء صحو وسماء غضبى.

ودرّبته أكثر: مقاومة المستعمرين لسنوات في الجبال.

هُرعت المرأة من صحن الدار فزِعة: ابن أختك قادم!

ـ ما وراءه؟

ـ لا أدري.

وانتصب فجأة. هيأ البندقية ووثب نحو الباب. كان الفتى يلهث. جاء عدْواً وفي وجهه توقع وخوف، وكانت معه بندقية. صاح: خالي. اهربْ!

اقتاده معه ونادى شفيقة: بعد المغيب في حرش الغضبان.
واندفع كالسهم. مطوّقاً الفتى من رقبته. وبيمناه البندقية:

ـ ما الأمر؟

ـ الدرك عرفوا أنك هنا. وشى بك المختار والقرية مليئة بهم.

ـ وهذه التي تحملها؟

ـ للقتال معك.

ـ انبطحْ هنا ولا تطلقْ. إياك أن ترفع رأسك.

بعد أن اجتازا مسافة، دفع الفتى نحو حفرة، وبخفة فهد تمرس بالذعر والاختباء، لطأ خلف صخرة في تل مجاور.

كان المساء هادئاً إلا من أصوات حوافر خيل وصهيل. وشوشات الجند حملتها الريح الرخاء. وعلى ضوء النجوم لمح أشباحاً تداهم البيت.

في الهواء رفع البندقية، وأطلق طلقة.

وانهمر رصاص مجنون، راح يبهق من كل أطراف القرية. وعن تلك الليلة الغريبة روى الشهود: أن رجلاً بمفرده قاوم سرية من الشرطة، طوّقته ولم تستطع قتله أو أسره. قالوا إنه كان يهدِّف على بهق الرصاص والتماعاته، وما كانوا قد أخذوا أماكنهم عندما بدأ يصطادهم عن ظهور جيادهم، ويرمي أشباحهم تحت ضوء النجوم، فكانت حشرجات احتضارهم تندغم مع صهيل الخيل والهلع المفاجئ، داوية في ليل جهم، يردد صداها الفاجع الصخورُ والوديان العميقة.

وفي تلك الليلة لم تأخذه بهم شفقة، ولا هم أيضاً. وخلال المعركة رُميَ ابن أخته، عندما أطلق مشتركاً معه في القتال، فأصاب الرصاص منه مقتلاً.

ورووا أن صراخ الفتى القريب كان متميزاً وفاجعاً بعد الإصابة. وإذ اقترب منه مسح دمه وسحبه تحت مطر الرصاص حتى أوصله أول بيت في القرية، وفر ناجياً بنفسه، خارقاً الحصار نحو الوديان السحيقة.

كانت معركة مروّعة، شاعت في القرى، وتناقلتها بيوت الفقراء في الأمسيات والأصائل. صار شاهين بعدها أسطورة، كسرت أول حلقة في سلسلة الخوف المزمن من السلطة والإقطاع وجميع الورثة غير الشرعيين للوطن المنهوب.

وفي أعقاب المعركة أحبه الجياع والذين في نفوسهم يكمن برق التمرد، وخافه الملّاك نهّاب الأرض، والذين سحبوا قتلاهم في ذلك المساء المثير.

6

قال الراوي: واتسع الصدى. حدث قلق وهيجان في بحران الهدوء العام، وراحت غيمة الصيف تنتشر وتتكاثف. تكابر من أجلها ومن أجل سماوات القرى العجفاء التي تندب بصلاة الاستسقاء إذ ينحبس المطر.

ولأنه خرج وفي نفسه ما في نفوسهم، أحبوه. وفي الوقت الذي كان يفعل فيه شيئاً أساسياً وخاطئاً، كانوا على الحياد. قلوبهم معه، وفي سرهم يدعون له بالنجاة. وفي الغمرة في اللحظة التي توهّج فيها، صارخاً بلا وعي جماعي بهم: أن انهضوا. كانوا غباراً وسائمة، يدارون صوت وعيهم الغافي تحت رماد دهور الخوف، وأزمنة الاضطهاد السحيقة، والجهالة العمياء.

ووحيداً كان يقاتل عنهم بطريقته الخاصة المجافية. أتراه كان خصباً ذلك الفعل القاسي، في عالم مغفل مبعثر لما يستفق؟ أم تراه كان عملاً فردياً لا يعني أحداً، أصاب رشاشه جميع الناس المقهورين؟

مهترئة بدت الأرض ببشرها، وقد بددت إرادتهم ووعيهم قسوة الحقب القديمة. وفي كل مكان كانت انطباعات الأرجل والحوافر المطاردة ما تزال موشومة فوق الصخور، وفي النفوس أيضاً.

وتتمة لرعب ثلاثمئة عام، جاء الوارثون. يصلون الحلقة بالفرس والرومان والتتار، ثم بالسلاطين العثمانيين وجثث دروب اليمن وصحراء سيناء، وموتى مجاعة سفر برلك، ولما تنتهِ.

كانت النفوس تطلب استراحة وظلاً. أرضاً صغيرة للحراثة وبيتاً، بعد إنهاك الحروب الجبلية في وجه رجال غورو، بينما كان الوعي في حالة ضمور كبذرة في أرض لم يسقط عليها مطر.

نبي آنذاك بمفرده ربما كان يستطيع خرق حجاب الزمن، ليكون الإسراء من سماء طهور إلى أرض ملوثة. وبدا شاهين إنساناً، مسّه التلوث فوثب نحو المستقبل الغامض، على صهوة من الدم، محاولاً التطهر. مندفعاً كأعمى فوق شعرة ممسوسة تصل بين جبل الموت الفردي وجبل المقهورين على الأرض.

واحتضنه حرش الغضبان الموحش. وكان منهكاً في تلك الليلة. وفي الليلة ذاتها لم تأت شفيقة. وكان على سيغاتا أن تحضّر نفسها للهجرة في الليالي المقبلة.

حملت سرية الدرك الوطني قتلاها وعادت. وبالحادث أُخبرت القيادة العامة، فصدرت الأوامر: طاردوا الخارج في الجبال. وبدأت القرى البعيدة تسمع في صمت لياليها أصوات الرصاص. زاد عدد القتلى، وامتدت الأسطورة أكثر، وفي كل مكان من قرى اللاذقية وحماة تهامس الناس عن العاصي. وصوبه فر أنفار من المحاربين القدامى يزودونه بالرصاص ويقاتلون معه فيشعر القط البري بأنه ما عاد وحيداً. تخف وطأة الجوع والوحشة زمناً، لكن المسافة عن سيغاتا راحت تبعد وتطول. ومع المسافة امتدت حكاية الفلاح المتمرد في وجه السلطة الباغية. حكاية روتها فيما بعد الصخور والأدغال وأغاني الشعب الحزينة.

ومع تغلغل الحكاية تعمق الحزن والفزع.

غارات ليلية ومطاردات. والفهد الذي كسر واستشرى رمى شبح الموت في الدروب، وفي عيون الشرطة التي تطلب غفوة وأماناً فلا تلقى. لقد كسر فرد شرس لا يخاف، هيبة السلطة ومرغها في الوحل. اعتادته البراري واعتادها فصار صديقاً للوحش والمطر والليالي القاسية، لكن بندقيته ظلت أوفى الأصدقاء.

وفي ليالٍ غلِسة كانت تتسلل نحوه. معها طعام ودخان، ومعها خوف من اقتفاء الأثر. وإذ تقترب تمسك حجرين وتضربهما مرات ثلاث، فيبرز من خلف الصخورة ومعه بندقيته، متأهباً.

- ألم تسمع كلمة السر؟

- للخيانة كلمة سر مشابهة.

- أتشك بي؟

- ربما قسروك يوماً لاصطيادي.

ويبتعدان نحو مكمن أمين. تمسك شفيقة البندقية وتحرسه بينما يأكل.

- كيف حال سيغاتا؟

- مهجورة. تركها الفلاحون إلى القرى المجاورة. غارات الدرك وكبساتهم الليلية سرقت النوم والهناء. كل إنسان فيها صار مسؤولاً عنك. وقع عليها غضب الدولة، والفلاحون يقولون بحرقة: عيشتنا صارت مرّة ولقمتنا مغمسة بالدم والإهانة.

- وعلي؟

- يسأل دائماً عنك. يبكي ويلحّ كي يراك.

ـ وكيف حال ابن أختي؟

تتنهد ثم تصمت.

ـ مات؟

وتومئ برأسها: أختك تقول لن تزغرد إلا يوم تراك مشنوقاً في مصياف.

وفي رأسه يشتعل غضب. يكز بكفيه ويسحج أسنانه مقهوراً، ثم يقذف الطعام عنه.

في كل بيت كان الطعام كالدفلى، واللقمة المرة لم يغمسها شاهين بالوحل وزوم الدفلى. لكن أحداً لم يكن يدرك لماذا ارتدى الغباء حذاء شُرَطي في قرى الجبال الفقيرة التي كُتبت عليها المهانة واستمر منذ أكثر من ثلاثمئة عام. والذين أدركوا حمّلوه الوزر وما حملوه معه. قرب الرؤوس، على الأرض النامية المخضرة أبداً، كان الحذاء يسقط مرة.. ومرة.. ومرات، والذين قنعوا بحياتهم الصغيرة لم يسألوا لماذا؟

وقال شاهين: آه. لو أمتص دم الدرك.

ومرة أخرى كزّ على نواجذه. بدا كوحش خبت إنسانيته. رجل سافرت من مملكته الشفاعة.

وقالت شفيقة: نمْ. سأحرسك.

واستلقى في حضنها طفلاً محرور الأيام. وراح يحدق في السماء المخملية المرصعة.

السماء حجر. صقيع من العري لا يحمي. والسماء غدر ولا مسرة.

من تفتدي؟ نفسك وشفيقة وعلي وسيغاتا؟ نفسك ومستقبل القوم الذين لا مستقبل لهم؟!

لكن الحذاء الأحمق احتذاه رب الأرض، ووريث بيتان، والسلطان عبد الحميد. ها هو ذا يملك الأرض من مشرقها إلى مغربها. السهول والجبال، الشجر والماعز، الدجاج والنساء. يقهقه مخموراً في الليالي مع الدرك وهم يمزقون نسغ الأرض، حليبها وطيورها وفاكهتها، وفي آخر السهرة يمتطي نساءه في أسرّة الدفء والطمأنينة.

وأنت غمامة سوداء في سماء صحوها خائن.

وهو لا يعمل، وأنت تضرب في أصل الأرض. ومنذ مئات السنين بل آلافها، وأنت قِنّ. عبد الذين ورثوا بلا حق. تعيش في بيت من طين وروث مع الحيوانات، ويعيش في قصوره بين جواريه وخدمه. وأنت تضرب من الفجر حتى المغيب، يسحّ عرقك وتضمر عظامك، وقبل الأوان يفنى عمرك المسخّر. يشرب عرقك، ويلتهم قمحك، ويسرج خيله المطهمة من جلود أيامك، ونحو المدن الناعمة يمضي، وأنت على قدميك المشققتين إلى أرضك تمضي، تحرث وتبذر قمحاً وشعيراً وتبغاً، ويحرث هو في خمارات المدن وملاهيها، ويبذر في أرحام المومسات أطفالاً لقطاء، يجنون الجوع والتشرد وكراهية العالم. تطلب حماية السماء فتتخلى عنك، ويطلب حماية الدرك فيستجيبون. وإذ لا تغلّ أرضك موسماً لرفاهه وحفلاته وشراء الضمائر، يستبيح دمك. تصير قاتلاً، يطلبك الموت، وتطاردك السلطة التي يختبئ خلفها. هو معه السلطة المُتخمة تقاتلك من أجله. وأنت معك المقهورون الذين لا يقاتلون. كذلك تبدو الآن، مخذولاً، مولوداً على سطح الأرض قبل مخاض الزمان، مثل طفل سفاح، تحلم بالطنين أن يصير دوياً

يخرق سمع الأرض، تحلم أن ينفذ إلى جحيمك الواحد أكثر من رجل واحد، لتصبح الأرض والأسرة والبيت ملكاً لمن ينبغي أن يكون الملك له.

وغفا. غفوة قرن من اليقظة، غادرت عينيه مذ صار الدم وسادته. ورأى جسده يطير. ناءت الأرض بالحمل فرفعته عن ظهرها المُنهك. خشبة في لون الصخور بعيدة، معلقة. الحجارة وجذوع الشجر وكل الأشياء القائمة وقعت. الأرض تمهدت ولا ستر. حوافر تضرب وأحذية. ورصاص يئز بلا صوت، والبنادق تحولت عصياً في رؤوسها حراب، تفتح ودياناً من جراح ولا دم... على الخشبة شيء يتدلى يشبه جسداً مجللاً ببياض تحمله سفينة الريح. والبراري سهوب تصوي. ها. الجبال غارت. وانزلقت الصخور. هو... عار. وفي لحمه ثقوب. مدلى تحت المجرة العارية. لا. أطلق أيضاً. انكفأ. والوجه شوك وجراح. أصوات قادمة تنذر. أصوات. وقائد الدرك كالقار وجهه. جمجمة من ثأر ودم وحقد. يا سماء احمِهِ. جرياً... جرياً. الذئب يجري والكلاب. والقاتل جريح. والدرك عباءة سوداء تغطي وجه الشمس. ها. جراد جائع. والجري في المكان. الوحش البري أوثق. قيّد إلى أرض بلا صخور. ها أنا طاف على قشرة الأرض. تنوشني الرياح. وصلوا أخيراً. أين شفيقة وسيغاتا. من يبكي هناك علي أم الأرض. سيغاتا تبتسم. آ... آ...

ـ شفيقة!!

وانتفض مذعوراً. نتر البندقية ووثب.

وذُهلت المرأة: ماذا؟

حدث ذلك خلال ثوان. تنهد، ثم مسح على صدغه رامياً عنه ذكرى الكابوس. ورويداً همد الذعر في نفسه.

- هل كنت في حلم؟ سألت المرأة.

- رأيت نفسي معلقاً في مكان مجهول لم أره في حياتي.

- لماذا لا تفكر بغير الموت؟

- الحلم لا يأتي بإرادة الإنسان.

كانت أمسيات عذبة تلك التي أمضتها المرأة مع زوجها في حرش الغضبان، لكنها كانت محفوفة بالمخاطر والتوقعات.

ناما معاً في كهوف سرية، على سرير من قش البراري الذي احتشته في النهارات. أوقدا النار في ليالي الصقيع، وفي الأغساق الراعشة بالاطمئنان الكاذب، التحم جسداهما المحرومان الخائفان. أكلا حيوانات برية اصطادها شاهين، وأعشاباً جمعتها شفيقة من التلال القريبة. وعاشا كحيوانين بريين أعادا حياة الإنسان البدائي في طوره الأول.

لكنها كانت حياة قصيرة. عن طريق الوشاة عرفوا بتسلل زوجته نحو الأدغال، فبيّتوا خطة لتطويقه.

قال الراوي: وأطل فجر وكانت معركة حرش الغضبان، وحكى الفلاحون أنهم حاصروه بالجنود وبعض المصفحات، حاولوا اقتحام معقله فرد على الجنود والمصفحات، وما استسلم وساعدته زوجته بتقديم الخرطوش. ولم يكن باسلاً في حياته التائهة المهددة مثله في تلك المعركة. ضرب بقسوة وألم مدافعاً عن روحه التي يريد زهقها صيادون أحاطوا بغابة. يبغون حيواناً ضارياً ينغص أحلامهم. ودافع عن شفيقة الجاثية قربه وهي ترتعش وتناوله الرصاص. وقاتل عن الأرض التي بارت ونهبت. وعن البيت الذي ما عاد ملكاً له.

من مكمن وراء صخرة، إلى مكمن. ومن خلف جذع إلى آخر كان يتنقل واثباً كفهد جرحت حياته، وتاريخه. أرادوا جسده غنيمة فأبى.

وبقسوة وحقد ضربوا الصخور والشجر، والفضاء وعشب الأرض وتلال التراب، فأحالوا الحرش جحيماً. وما كفّ أو استسلم. تقدموا فتراجع وصرخوا به أن يرمي سلاحه لأنه محاصر ولا أمل بالنجاة، فردّ على أصواتهم بالرصاص. وظل يضرب ويقاوم حتى مالت الشمس عن سمتها وانحدرت نحو الغرب.

وإذ جثم الغروب هدأ صوت أزيز الرصاص.

- سأهرب.

- إلى أين؟

- البراري صدرها واسع.

غمغمت الزوجة: آه.. يا رب إلى متى هذا الشقاء!

- كوني قوية ولا تيأسي من رحمة الله.

- وهؤلاء الكلاب يطوقوننا؟ شاهين. شاهين انتظر حتى يدب الليل.

- جبناء. أنا أعرفهم.

- أبو علي متى ينتهي هذا العذاب؟

- تعبت مني؟

وفي صدر المرأة شال الجرح. تنهدت: آخ. لو في آخر الأرض مخبأ لطويتك تحت الضلع وأخذتك إليه!

ـ ولكن الجنود في كل مكان يا شفيقة.

وبين الذعر والحزن البعيد والفقد، طوّقها بذراعيه القاسيتين. شدّها إليه بودّ وداعي وألم. وتمرد بكاء محتقن.

7

قال الراوي: ومرة أخرى خرق الحصار. نجا وظلت شفيقة وحدها في الغابة، حتى قبض عليها الدرك الأشاوس فاقتادوها أسيرة.

وطالت المسافة عن سيغاتا، أرض الطفولة والتعب والأفراح القديمة. قرى أخرى آوته وأطعمته رغم الإرهاب الذي راح يتسع ويشمل ريف اللاذقية المقهور منذ الدهور الأولى. استمرت الهجرة عن سيغاتا والقرى المجاورة. ومع الهجرة عن الأرض والبيوت كان شاهين ينمو في الأماسي.

تحول أرقاً يسرق النوم. طائراً بجناحين لا يؤثر فيهما الخفق، ولا ينالهما الرصاص. أيما وقت يسري، وإلى أي مكان، حاملاً العزاء والفرح الصامت إلى قلوب المقهورين الذين سقطت قيمة حياتهم ومعنى وجودهم تحت جزم الجند وغطرسة السلطة الحاكمة.

صار السهاد فراش دولة الدرك العتيّة التي خلفتها تركة الغزاة لحماية الأوطان. وشعر الفلاحون أن معجزة تحدث. بعضهم تحركت نخوته فدعا الله أن يحميه. وآخرون استنكروا هذا البلاء. وظل الكل ضائعاً بين الدهشة والنخوة.

في صباح اليوم التالي، وأمام من تبقى في سيغاتا الحزينة

المقهورة، اقتيدت المرأة السبيّة مع طفلها إلى السجن مشياً على الأقدام.

وإذ سأل الطفل: إلى أين نذهب يا ماما؟

همست المرأة: لا تخف يا ابني.

كانت رائحة الطفل في حضنها غضة كرائحة اللوز الغضّ، ضمته بحنو فشمت فيه رائحة أبيه. وبدا الطريق الموحل موشوماً بحوافر الخيل المنضاة، بينما راحت قوادم الحصان الذي يسير خلفهما، ترمي فوق الوحل إيقاعاً موجعاً بالرعب واليأس.

لا بيت. لا رجل. لا أمل. والناس مختبئون، تلمع عيونهم الخائفة من خصاصات مشروخة. وشاهين هناك. بعيد تخلى عنه قومه. ولا وطن له.

وقال الدركي: هيا. وهو يفرقع سوطه في الفضاء الأجوف. بتلّة رطبة نافرة من الأرض، تعثرت شفيقة، فوقعت مع الطفل على الوحل: لا تنوحي.

ونهضت. مسحت الوحل بطرف فستانها عن جبين الصبي. وكفكفت دمعاته. تنهدت بحرقة: تعبنا يا أخي. أليس لك زوجة وطفل. صاح الدركي بغضب: زوجك السبب.

- إلى أين تأخذنا؟

- إلى جهنم التي تحرقك وتحرق زوجك.

وفوق الوحل خبّت حوافر الحصان راشقة الوحل على وجه المرأة والولد، بينما فرقع سوط الجندي مرة أخرى فوق رأس الأسيرين.

غباء. سقط فوق الأرض، وقبل أن يغوص في باطنها التقطته

ساميرِ حذاء جندي غافل، فارتمى داخل اللحم والعظم ثم ستوطن النفس وتحول إلى قسوة عمياء.

جبال تنهض وربى مخضرة كوجه البحر. مطر وسهول وشمس. ولكن الأمان مفقود. كذلك العدل.

وطن عامر بالخصب والبشر التعساء. لكنه مملوك للأغنياء الذين سرقوا النصر والأرض في عصر بائس، وما رفت جفونهم ندماً، وخلفهم كان منفذو القانون من التعساء الحمقى والمرتشين. وعلى الذين ضحوا من أجل الحرية والعدل، من أجل الأرض التي يحرثونها منذ القدم، كان محرّماً.

بغتة يظهر رجل صغير ونحيل، محفور الوجه بالتعب والشقاءات. يولد من نسل التعساء والمنبوذين، طوله مئة وأربعة وستون سنتمتراً، ووزنه ستون كيلوغراماً من اللحم والعظم والدم. يهزّ الأرض، يصدّعها تحت الورثة اللاشرعيين بطريقة لا مشروعة، ويقول: لا. من أجل التائهين، لكنه لا يدرك ذلك. وهم لا يدركون.

وفي كل مكان تُنصب الفخاخ لتصيد خِلداً هارباً. يحفر في الأرض أوكاراً يأوي إليها تحت الريح والمطر والجوع. يطارده الطغاة من مكان إلى آخر، والزمن ساعة معطلة في جيب قائد الدرك، وريث بيتان الذي لا يفكر بغير هذا الوحش التائه.

قال الراوي: وغبّ معركة دغل الغضبان، انتقلت قيادة الدرك إلى مصياف. فالأمر ما عاد سهلاً، وما كتبه قائد الفصيل يوماً في تقريره صار مهزلة مرّغها شاهين بالوحل ودم الشرطة الذين قتلوا في ذلك اليوم الحزين.

بث القائد العيون في القرى، وأعلن عن مكافأة مالية لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً، واتصل ببعض الذين فروا نحوه،

فرشاهم ليأتوه بأخباره، ومن مصادفات الزمن أن القائد العام كان يعرفه من أيام الفرنسيين.

ومرت أيام. تضاربت الأخبار عن موطن شاهين، والقائد العام يتلقى المعلومات، ويرسم الخطط ويحلم بالقبض على الخارج.

إبّان ذلك، وفي ليلة جهمة، أغار شاهين مع بعض أنفار الفرارية على مزرعة الآغا وقصوره احتفاء بقدوم القائد العام. أحرقوا المزرعة وحملوا طعاماً وتبغاً وبعض الأمتعة الخفيفة، بعد أن خلصوا الدرك الذين كانوا يسكرون في القصر بنادقهم وخرطوشهم، ثم ولّوا الأدبار نحو الجرود القصية. وهاجر الآغا إثر الحريق مع زوجاته وأطفاله وما تبقى له. جُن جنون القائد العام للحدث الصاعق، فانفجر في وجه الدرك الذين عادوا بلا بنادق. سبّهم وسجنهم، وصمم أن يتولى الأمر بنفسه.

وكانتشار الحريق انتشر تمرد شاهين، فأرّق الحكوما الوطنية وأفزعها.

نحو القرى النائية ارتمى الصدى، قوياً، أسطورياً لا يصدق وأطبق الغضب على سيغاتا.

أُخليت حتى ما عاد فيها صافر نار. وفي الليالي الشتائيا الكئيبة راح البوم ينعب في خرائبها المهجورة.

وجاء يوم.

ـ شاهين. أنا قائد الدرك.

وسمع فهد الجبال صوت القائد من مكمنه وراء صخرة.

ـ شاهين. افدِ زوجتك وسيغاتا والفلاحين.

وحرك الفهد بندقيته فوق الصخرة بهدوء وحذر، فاتحاً بين ورق السنديان فجوة.

- سلّم نفسك وأنا أكفل لك محاكمة عادلة. هل تسمعني ياشاهين؟

على الزناد ضغطت أصبع قاسية عجفاء مذعورة، فأزّت رصاصة، توارى أنينها الخافت بين قوادم الحصان وهي تنغرز في طين الأرض.

رفع الحصان أذنيه ثم حمحم، وحاول القائد أن يتقدم أكثر:

- شاهين. أنا وحدي وليس معي سلاح. اقتلني إذا شئت.

وجاء صوت شاهين: لا تقترب أكثر. أستطيع أن أقتلك ولكنني لا أريد، عُدْ من حيث أتيت.

وصهل الحصان، رافعاً قادمتيه في الهواء قليلاً، ثم حرن.

- جئت من أجلك. وأنت تعرفني يا شاهين.

وسدد جيداً: الرصاصة القادمة في رأس حصانك. أنا لا أعرف أحداً. أنتم غدارون.

وحاول قائد الدرك أن يخطو فوق الحجارة والعشب، وعيناه تشيلان نحو قمة الجبل.

فجأة زحر الحصان زحيراً موجعاً مع صوت الطلقة. شب في الفراغ صافقاً قدميه الأماميتين، وكبا مائلاً نحو الأرض الحجرية المعشبة. اختلج قليلاً ثم انقلب على خاصرته اليسرى، وراح يشخر، ضارباً بحوافره سطح الأرض المبتلة.

وتوقف القائد. أفلت الرسن وراح يحدق في الحصان.

- خطوة أخرى وتكون الثالثة في رأسك.

كانت الطلقة قد فتحت جرحاً في جبهة الجواد، مخترقة النحر. وراح الدم يشخب ثم يسيل في ثنايا العشب الطري. وتملاه وهو يشيل رأسه محاولاً النهوض بقفزة أخيرة، غير أن وثبة النزع أهمدته. رويداً راح يطبق عينيه الزائغتين وبوداعة غفا.

بعينين محرورتين تطلع قائد الدرك نحو القمة، ثم صاح بوحشية: ستموت يا شاهين كما مات هذا الحصان.

وانحدر عائداً.

8

عمّت دوريات التفتيش قرى اللاذقية: سواحلها وجرودها الناهضة المتاخمة للغيم. وفوق تلك القرى راحت السحابة تكبر وتنتشر. تمنى الأطفال أن يروا ذلك النمر العاصي الذي حلموا به في نومهم: مديداً بقامته كالحور الباسق. بصدره العريض كسفوح الجبال، ووجهه الوحشي الجهم يمتد عليه شارب مفتول ينعقد وراء أذنيه.

في الليالي يغير كالبرق على المخافر، وفي يده بندقية وسكين، يضرب الدرك فينزع أحشاءهم، ويأخذ خرطوشهم ومعاطفهم ثم يسوق أبقار الآغا من مزارعه ويعطيها للفلاحين. يأتي للأطفال بالثياب الجميلة والألعاب واللحم الشهي والحلوى ويقول لهم: هذا رزق آبائكم الذي سرقوه.

ثم يمضي كشهاب في العتمة، طاوياً الآفاق. قدماه تسبحان في الفضاء، وعيناه الومضتان تخرقان العتم. يطير.. يطير. حتى أعلى قمة ويحط هناك، يأكل مع الوحش والغزلان، وينام في أعالي الشجر، ومعه حكايات لا تنتهي عن الذئاب والطيور والأرانب، والجان الذين سكن معهم في الوديان المخيفة المهجورة.

قال الراوي: وليلاً نهاراً طلبه الموت وما ملّ. ورووا عنه

أساطير وحكايا. قالوا: إنه سار مع الدرك في الليالي دليلاً لهم على مخابئ (شاهين) وكهوفه. آوته القرى والمغاور وقبب الأولياء، فأحبه الشجعان والفقراء وكان وليّ نفسه. وقال له الموت: اسكنْ معي فسكن.

وروى قروي في أقصى الجرد: كان يستطيع قتل قائد الدرك. وحوّح ساهر آخر التمَّ قرب نار السنديان المتقدة: ليلة باردة. أين ترى شاهين الآن؟

وتمتم صبي لوالده: أتمنى لو أنني مع شاهين.

ابتسم الوالد. كلنا نتمنى يا ولدي.

وهز رأسه: إيه...

وسأل الصبي: أتحبه يا أبي؟

أومأ الأب موافقاً: الجميع يحبونه. قلوبنا معه يا بني. لكن العين بصيرة واليد قصيرة.

- كم يبعد من هنا؟

- لا أحد يدري.

- ولماذا لا تذهب إليه؟

رمق الفلاح ابنه البالغ ثم ابتسم: وماذا نستطيع أن نفعل له؟!

ورد أحد الساهرين: نحن ضعفاء ونخاف الدرك.

قال أبو الصبي: رجل قام في وجه الدرك قيامة مجنون. من نحن لنقاوم الدرك؟ وهل تستطيع العين أن تقاوم المخرز؟

وقال الصبي بفجاءة: لكنه يقاومهم منذ زمن طويل وحده.

وتنهد الأب: سيموت يوماً، عاجلاً أم آجلاً. شاهين رجل ميت ولا أمل له يا بني.

قال الساهر: والله نحن قوم لا خير فينا.

وأجاب آخر كان يستمع: تفضلْ. أرنا رجولتك يا علي الصالح!

وأحس علي الصالح بسكين تدخل مكاناً في نفسه، تدميها ثم تتوقف.

في سجن المخفر كانت المرأة وابنها ساهرين، وفي ساحة السجن كان الحارس جالساً يتثاءب.

وشوش علي لأمه: أين بابا الآن؟

ربتت على ظهره: نمْ يا حبيبي.

وسأل الصبي: بابا مات؟

همست شفيقة بأسى: أبوك حي.

مددته في حضنها فوق خرقة قديمة، وبدأت تهز له مدندنة بأغنية شاعت في القرى عن شاهين، راحت ترنمها بحزن:

أوف... أوف... أوف
يا بو علي يا شاهين
يا الرابط بالْوادياني
بيدك (موزر) معدلْ
تحمي فيها المواني
قلب الفهد ما بيلين
قلبك صخر صواني
قتّلت كل الدرك
جنب حرش الغضبان

أوف... أوف

وسيغاتا ماتْشوف النوم

الدرك سرقوا النومان

ليل نهار، نهار وليلْ

حوافر خيلن سهراني

وشفيقة تنادي بالليل

وينو سبع الشبّانِ

وينو فارس سيغاتا

وحدو سياج الأوطانِ

البنات كلّنْ سبايا

بالمخافر بكياني

وعلي ينده يا بابا

صوتو يبكي الصوّانِ

أوف... أوف

وسيغاتا صارت صحرا

للجراد الجوعاني

هالطير الهاجر ما عاد

ريشْ أياموا تعباني

والريح بتبكي بالليل

المطر مانو دزياني

قلبي عندك يا تايهْ

دبلو وراق الريحاني
الله يخون الْبيخونك
الخاين مالو آماني

كانت عيناها تسحّان دمعاً مع مقاطع الأغنية، والطفل يطبق جفنيه وهو يغالب النعاس مكابراً هزيز النوم السابح فوق أجنحة الأغنية الحزينة.

وفي الخارج لوى حارس السجن رقبته ونام.

أربعة من الشرطة يتقابلون وبينهم طاولة قديمة، عليها أربعة أقداح من الشاي وبين أصابع كل منهم ورق لعب. وعلى سرير مجاور شرطي أحمر الوجه منفوخه، ضخم الأصابع يقشر برتقالة وهو يقوم بالحراسة. يشق البرتقالة نصفين. يمسح السكين بطرف السرير ويقذف القشر إلى الخارج.

كانوا جميعاً ينتظرون قدومه، ليفك أسيريه. فجأة انتبه أحدهم: صه. أسمع وقع خطى!

وتتوقف دائرة ورق اللعب المروحية في الأصابع العشرين:

- من أين؟

ترهف الآذان.

- من الشرق.

ومن غابة الأسرار، يولد خوف كان مستكناً. تخفق قلوب أرّقها الذعر وهدّت قواها أسطورة رجل الغابات السابح على أجنحة الليل. الرجل الذي لا يعرف النوم.

- أتراه قادم؟

- من يدري.

ـ مضى زمن مجيئه.

ـ لم يمضِ.

ـ انصتوا قليلاً.

ـ لا صوت.

ـ ليخرج واحد منا ويراقب.

يتوقف شقّ البرتقالة بين شفتي الشرطي وهو ينصت.

ـ اخرج أنت.

ـ بل أنت.

ـ لا أنت.

ـ هو.

ويقضم الشرطي البرتقالة خارقاً جدار صمت القلوب التي أوشك وجيبها أن يهمد.

بدوا كالتماثيل الحجرية. والليل في الخارج تيه. لقد عُقِلوا الآن في سجن رعبهم بينما كان طليقاً في براريه الآمنة.

ضرب شرطي الأرض بمسامير حذائه، محاولاً تخطي لحظة الهلع القائم والمنشور فوقهم: لا صوت. وهمٌ وخيال.

ـ بل سمعت صوتاً.

وشجعوا بعضهم البعض بكلمات مبتورة تثير الرحمة.

ـ هذا صدى دقات قلبك.

قال أحدهم: والله أنا مشتاق لمواجهته.

ـ لدمه؟

ـ لا. لوجهه. يحكون عنه ولا نراه. يا جماعة هل تضحكون مني لو رويت لكم حلماً غريباً عنه؟

قال الشُّرطي الذي يمضغ البرتقالة ويتفّ بذرها على الأرض:

ـ هات احكِ.

لمّوا ورق اللعب. وتسلل أمان مؤقت.

ـ اللهم صل على النبي.

ـ آمين.

ـ والله أمس رأيته يشق غيمة وفي يده ميزان. طويل عريض يرتدي لباساً أبيض وفي وجهه جهامة وله لحية طويلة. كان في يده ميزان كما قلت لكم. ابتسم لي بعينيه وهو فوقي وقال: أنا شاهين يا عبد الله. وهذا ميزان العدل. ادخل في كفة هذا الميزان لنزن العدل. دخلت الكفة. خاطبني قائلاً: سأضع البرد والتعب والجوع في كفة وأنت في كفة. إذا رجح البرد والتعب والجوع عليك تموت. وإذا رجحت كفتك ستنجو. ورأيته يفصد دمه وينقطه في الكفة الأخرى فرأيت نفسي أعلو. صحت خائفاً: لا. لدي امرأة وأطفال وأنا فقير. قال: ضعْ زوجتك وأطفالك معك في الكفة.

ورأيتني معهم في كفة الميزان. وراح ينقط تعباً وبرداً وجوعاً في كفته، ورجح البرد والتعب والجوع. صحت: أنا بريء ومحكوم. ورأيته يغور في الأرض في شق يسع السموات والأرض ويمكث هناك. بينما علوت أنا في الفضاء ووقفت هناك متأرجحاً بين السماء والأرض.

وجاءني صوته من أغوار الأرض: ما عدد نجوم الدب الأكبر؟ صحتُ: الأطفال يا شاهين. أنا مغلوب على أمري!

وسألني سؤالاً آخر: ما طول مسمار حذائك؟

صرخت وأنا أتأرجح: لا أريد أن أموت.

قال: يا غبي لا تقترب من الوديان. وتركني أسقط من أعلى عليين في جوف الأرض.

كان الشرطة يستمعون فاغري الأفواه، وقد نسوا صدى الخطوات. وإذ انتهى راوي الحلم جهدوا في تفسيره لكن ذا الوجه الأحمر المقعي فوق السرير قال:

ـ هذا هُراء!

وقال آخر: أضغاث. لا معنى له.

وحلل آخر: أنت مجنون. هذا خيال دمك. أكملوا اللعب يا شباب. وهز راوي الحلم رأسه وهو يسترجع ذكراه: أحسُّ صداعاً وسوف أنام.

9

وروت القُرى والفلاحون أنه حضر في المساء نفسه. لكن أحداً لا يعرف كيف دخل. قالوا إنه نزل من السقف أو اخترق الجدران. وروى الفتية بأنه لوى حديد السجن واخترقه، ورفع أبواب الغرف بزنديه ثم اختطف امرأته وابنه. وقال آخرون: لقد انتظر حتى هجعوا فتسلل بخفة من الأبواب الرئيسية دون أن يشعر به أحد.

وإذ استيقظ الذي سمع صوت الخطوات قال لرفاقه: أما قلت لكم أيها الحمير أنه صوت لا صدى. واعتكر مزاج صوت الذي قشّر البرتقالة: والله كان يتنصت علينا قبل أن يدخل.

قال الراوي: وبارت أراضي سيغاتا. القتاد والبلان غطى السفوح، ومكان الزرع نبت الشوك. وتحت زخ المطر وقصف الرعود انهارت حجارة التخوم، وازدادت هجرة الفلاحين من القرى المجاورة نحو الشرق القصي، بعيداً عن وطن البلوى والحرب التي لا ناقة لهم بها ولا جمل.

الأرض وسكانها المقهورون، نفوسهم والطمأنينة، لمع البرق في سماواتها فاعتكرت.

برق بدا في ليلة ما مزاحاً صيفياً. شاهدته طائفة منهم فأغلقت أبوابها دونه، لائذة بالراحة والمحايدة. راضية داخل منازل تعبق برائحة الروث والحطب ورائحة ملل الأيام الفارغة.

نفوس راسخة رسوخ الجبال. فوقها ناخت دهور من الاستكانة والرضى الكاذب. منذ قرون لا يعرف بدؤها ومتى تنتهي، وهي تصلي لله وتسجد. تزرع الأرض التي لا تملكها، وتمضغ خبز الشعير والذرة والتين اليابس وما تدرّه الضروع ماضغة معها شقاءها الدهري ويأسها.

ومن أجل معزاة تجتاز تخوم الأرض، تسفك الدم، وفي الليالي تنخلع قلوبها من وقع حوافر الجند الذين يتوهمون أنهم ورثة الله وظله على الأرض. توشوش في العشيات بعد رحلة الضنى: خبزنا كفاف يومنا. ربنا رزقتنا أكثر مما نستحق. الشكر لك والنعمة لك يا أرحم الراحمين.

وإذ يستمر البرق، خارقاً هذه القناعة. يسألون: ما هذه البلوى؟!

فترد الدهور القديمة: إذا ابتُليتم بالمعاصي فاستتروا.

واستتروا.

وهو الذي صُلب وأُوثق، ثم ضرب بالعقب المسماري ضربات مهووسة على رأسه حتى شُجّ، وحتى تلوثت العقب بالدم، فساح فوق نسيج الدماغ وما صرخ. وما نده الباري ولا ذل الدهور. لكنه انتضى سيفه وصاح، خارجاً من ظلام القرون، من سجون المهانة الطويلة، مبشراً بالطوفان، وما كان يبغي مجداً.

هو الذي لم يسرق فقيراً، ولا أهان فلاحاً، ولا سطا على القرى الآمنة لماذا ظل وحيداً؟

وما فعله هل كان وحشية وخرقاً لقانون السموات والأرض؟ ولماذا من بين الجموع الغفيرة يحاول القانون أن ينفرد برجل واحد ليأخذهم به؟

وأخذهم وهو يقول آمراً: أطيعوا أولي الأمر.

هو العدل والقانون يأخذان مجراهما من طرف واحد، والذي طُعن بسيفيهما: شاهين والفلاحون الأتقياء.

وهاجروا وهجِّروا. وازداد البرق إيماضاً من الجهات الأربع وفي الأرض ثوى. حتى الحجارة كانت تحدث بروقاً تحت حوافر خيل الجند.

ولكن من الذي رأى؟ ومن رأى لماذا أغمض عينيه؟

هكذا استوت الهجرة بالضرب والمطاردة فكان الخروج.

10

قال الراوي: وواحداً تلو آخر تركه الفراريون وما خانوه. وإذ سئلوا عنه في مخافر الدرك والسجون قال: إنهم رأوه لا ينام في مكان ليلتين. ينتقل بين الأدغال وضواحي القرى ولا يأوي إلى المنازل.

ـ لماذا قاتلتم معه؟

ـ من خفّة عقولنا.

ـ لماذا تركتموه؟

ـ تعبنا. العيش جنب الأطفال والنساء والنار الموقدة أفضل.

ـ أنتم شركاؤه.

ـ هو يقاتل من أجل ثاراته. أما نحن فلا ناقة لنا. لقد تبنا.

ـ ستكونون أدلاّءنا للقبض عليه.

هكذا اختتم القائد العام استجوابهم.

وفي قراهم عبر سهرات الشتاء، قرب نيران السنديان وبخار الشاي الحار والزوفا، نشروا أخبارهم معه.

رووا عن جرأته ومفاجآته، وأنه لم يكن يشكو إلا من قلة

الخرطوش والدخان، وما هابه غير النوم. كان أحدنا يحرسه حين ينام وعندما يستيقظ يثب بسرعة نحو بندقيته زائغاً بعينيه في جميع الاتجاهات.

هاجمْنا بيوت الآغا وأحرقناها، بعد أن أخرجنا النساء والأطفال. ما سطونا على قرية، ولا قتلنا دجاجة لفلاح. ومامررنا على ربع من القرى إلّا وأطعمونا، وزودونا بالتبغ والطعام، ودلونا على الطرق المؤدية.

وعندما كانوا يسألوننا عن شاهين وهو معنا، نقول: لا نعرفه.

حياة الفرارية ممتعة وصعبة. في البدء مثيرة وبعد حين تصبح قاسية وشاهين وحده يستطيع أن يستمر مع الشقاء والبرد والخوف. الليالي والوديان علمته الصبر حتى كسر عليها. ثم برقبته دماء الدرك الذين قتلهم.

وحكوا: إن الحياة معه لا تطاق. فهو لا يثق إلا بنفسه، ولا يثبت في مكان. وفي الأيام الأخيرة صار حذراً يشك بأي إنسان، ويريد أن يفرض سطوته. بدا كأنه يميل لقيادة عصابة ضد الدرك، يرسم لها كيف تعيش، ومتى تنهب المخافر وتضربها، وكيف توزع الغنائم، وعدم السماح لأحد بالذهاب إلى زوجته وأطفاله. كان يريد أن يكون زعيماً، وكل منا كان يشعر بأنه زعيم. لقد تركناه بعد حين وكلٌ سار في سبيله، لكننا أقسمنا ألا نخون. لقد جمعتنا سوية ليالي البرد والمطاردة والخبز والملح، وكراهية أولاد الزانية: الدرك.

قال الراوي: وإذ عادوا إلى أطفالهم وزوجاتهم وحياتهم

الرخية، وظل هو يقاسي في حربه الفردية، وعدوا الشرطة أن يمسكوه إن ظفروا به يوماً.

وذات ليلة شتائية عامرة بالثلج، ظفروا به بعد أن هجروه. في عينيه كان يرسو السهر والذبول وبرد الليالي الطويلة. كم بدا متعباً إذ دخل البيت. كان في جسده نحول واضح، لكن أحداً لم يخطئه للوهلة الأولى: ببندقيته والتفاف كوفيته على رأسه بحيث لا يظهر من وجهه إلا عيناه المتحركتان أبداً في محجريهما وخطواته الحذرة الخائفة من المباغتة.

وإذ صار بين السهارى حيا بهدوء. كشف لثامه، ثم نزع بندقيته ووضعها تحت متناول يده، وبقي معززاً بصفوف الخرطوش.

احتفى به من كان معه من الفرارية، وتملاه الفلاّحون الحاضرون بإعجاب ودهشة، وانطلقت ذكريات قديمة رممت أحزان نفسه.

كانوا جميعاً حول النار المتأججة، يشربون الزوفا، ويدخنون التبغ العربي، وبعفوية أحضروا طعام العشاء فأكلوا معاً. وروى لهم كيف نزل إلى مصياف بعد الضحى وصعد إلى السراي، ثم تنصت من زاوية الشباك على قائد الفصيل يتحدث إلى علي الصالح، عن اتفاق تسليمه للدرك:

- أين اتفاقنا يا علي الصالح؟ يسأله قائد الفصيل.

- ليس الأمر بيدي.

- أخذت مئتي ليرة ثم وعدناك بحارس على المزارع. وها قد مضى شهر ولم يظهر منك إلا الكذب والخداع.

- يا سيدي. شاهين ابن حرام. مثل النمس. الصبح تلقاه بوَكر، وفي المساء يحفر آخر.

- كذاب. ابن زانية. دود الخل منه وفيه. كلكم كذابون يا أولاد الأفاعي.

- مولانا. أمهلني وحياة راسك أنا قناصهُ. هذه الشوارب على امرأة إن أخلفت.

- اخرج. اخرج. بشرفي يا علي الصالح وشرف هذه البدلة. حبل المشنقة ينتظرك معه إن خنت.

وخارج البلدة التقينا. تعانقنا وفصدنا أصبعينا. شرب علي من دمي وشربت من دمه فآخانا الدم. كان علي ينزل إلى البلدة ويخبرهم أن شاهين شوهد في قرى الساحل بالأمس، بينما أكون أنا في الجرود الشرقية.

وإذ سأله أحد الأنصار القدامى: أما تعبت يا أبو علي؟

هز رأسه وهو يرشف الزوفا: ضعْ نفسك مكاني. هل تسلم نفسك للموت؟

- ولكن القرى تعبت يا شاهين... سيغاتا صارت خرابة. والقرى هجرها الفلاحون!

- ولكن الدرك غرباء ونحن أهل. وهم يطلبون دمي.

وقال النصير القديم بحزم وغضب: لكن الأرض ما عادت تستطيع حمل أوزارك، إما أنت وإما القرى.

وقال شاهين وهو يفترّ بابتسامة سخرية: أأنت جاد فيما تقول؟ هز ضرغام برأسه نحو الأسفل: نعم جاد. إما أنت أو نحن.

كفانا ما تحملنا. اتسعت حدقتا شاهين ثم احمر بياضهما وانحرّ: أنت جبان. الدرك هم الوزر. ولو أصيب كل واحد منكم بما أُصبت لما ظل هكذا كالحجر.

وبحركة عصبية قذف قدح الزوفا، ثم صرخ بوجه السهارى الذين جمدت عيونهم وأجسادهم: سألتني عن التعب. أنت وهُمْ، ماذا تعرفون عن التعب والجوع والبرد والخوف؟ لو نشلت قلبي لرأيته ككوفيتك السوداء. أنت وهُمْ لكم بيوت ونساء وأطفال وأراض تزرعونها. تطلع عليكم الشمس في الفجر وأنتم آمنون، وتغيب فتأوون إلى بيوتكم تشربون الزوفا الساخن وتدخنون التبغ الجيد باطمئنان وسلام. لكن أنا أين بيتي وزوجتي وأطفالي وأرضي، أين شمسي وتبغي وسلامي؟ تقول بأنني وزر هذه القرى. والذين يسرقونكم في الصباح والضحى والأماسي. الذين نهبوا أراضيكم أيام الثورة، والذين يأكلون دجاجكم وسمنكم ويدخنون أجود التبغ من مزارعكم ثم يسوقونكم نحو المخافر كما تساق الكلاب. يسطون على بناتكم، ويستخدمونهن في بيوتهم ومخافرهم، أهؤلاء هم الناس الطيبون؟ الناس الذين يجب أن نقدم لهم رقبة شاهين ودم شاهين لننجو. هاه. قُلْ؟

كان غضبه قد فار، وقرب أحد السهارى كانت عصاه، وثب إليها وتناولها وانهال ضرباً على صديقه القديم. ضربه على رأسه وكتفيه وظهره وصرخ فيه: خذ يا ابن الزانية. هم. هم. فلاح يساوي حذاء. أتشتم الآغا يا ابن الكلبة؟ الكلب إذا شبع يحرك ذنبه. هم. هيه. وتسب الدرك هاه. كيف ترى حالتك الآن؟

وقالوا: إن صديقه كان يتململ تحت ضربات العصا، ويصرخ كوحش مجروح، فدار في أرض البيت محتمياً من الوجع، وهو

زائغ وقعت يده على منجل حصاد. تناوله وهجم على شاهين فأصابه في كتفه.

وتدخل الفلاحون: مجانين! ووقفوا بينهما.

وهمد شاهين، وحاول تضميد جرحه بخرقة وببعض الرماد، بينما استمر صديقه يعوي: دعوني أقطع رأسه. هذا المهبول. هذا الوحش. ألم أقُلْ لكم إنه مجنون والحياة معه كالحياة مع شيطان.

وتنهد شاهين ثم افتر بقرف وغيظ مكتوم، ونظر إلى صديقه الذي يلهث في عاصفة غضبه: تألمت يا ضرغام. نقطة دم لم تنزل منك. يوم ضربوني سبّحوني بالدم، وما صرخت. نزلت المسامير في رأسي حتى أحسستها تنشب في دماغي، وما بكيت. هذا ما حدث. اسأل شفيقة عن رأسي ووجهي كيف كانا. دعها تريك ثيابي المغمسة بالدم في صندوق عرسنا. الحيوان لو أُهين يومها لصرخ وعضّ، والحجر لو ضُرب كما ضُربت لتحرك. من أجل ماذا؟ من أجل الآغا والحارس. وحتى لا يتعود فلاح حقير الردّ في وجه ابن حكومة.

كان ضرغام قد هدأ قليلاً وإذ قال له: أنت وحش ومجنون.

اقترب شاهين منه بهدوء وحزن: سامحني، سأودعك الآن واغفرْ لي ما فعلت. فلن تراني بعد هذه الليلة. سأحمل وزركم جميعاً عند الله يوم القيامة. سامحوني جميعاً يا صحاب.

وصرخ ضرغام بوجع: لا تقترب مني.

تقدم شاهين حتى حاذاه: دعوه يقطع رأسي إنه أجدر من الدرك. آه يا صديقي كم من السنين والدهور ستمر قبل أن نصير بشراً!

وبذهول، بين مصدّقين وواهمين، رأى الفلاحون عناق شاهين لضرغام في تلك الليلة الأخيرة. وقالوا إنهما بكيا كثيراً.

ولما خرج شاهين متمنياً لهم ليلة طيبة، أصابهم غمّ كبير على فراقه.

11

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق». ويستمر القتل. من يعرف الحق؟ في أي كتاب يقطن؟ في أي أرض؟ هذه الوديان المغبشة تحت الغسق، وهذه المجرات العارية والمغطاة بالسحب. تلك السفوح الجرداء والخضراء، والذرى المكللة بالثلج والخوف والإهمال ثم أناس الغابات، فصائل الذعر والتعب، وكنوز القناعة التي تفنى. هل لها كلمة في كتاب الحق والعدل؟ هل لها بذرة في أرض العدالة الكونية؟ وهل زمانها السائب يميل كفة ميزان العدل؟

اسألوا الكتب السماوية والمحلّفين والمدّعين العامين، وقضاة اللاذقية ومصياف والحفّة والقدموس ونواب المجلس النيابي، واسألوا الدرك أيضاً.

وإذا أردتم أن تنقبوا أكثر، اسألوا ورثة الأرض الأميين من إقطاعيي سهول الجزيرة والفرات وسهوب حمص وحماه وحلب والغاب وغوطة دمشق.

وإذا لم تجبكم، اسألوا الجيوب والمِعَد والخيانة والسيطرة والامتيازات والكراسي التي تدور في الغرف السرية النظيفة، واسألوا تركيا وفرنسا وبريطانيا وشهداء المجاعة والحروب في مصر واليمن وفلسطين والعراق والمغرب، وأخيراً انعطفوا نحو

فلاحي قرى الريح والشمس والضنى، إذا ما أعياكم البحث والجواب.

بين هذه المجرات الظاهرية والباطنية، كان يبدو ميزان العدل مائلاً حيناً، وضائعاً أحياناً، في غمار المهزلة الإنسانية التي يحكمها الأقوى.

كان الحق إذن للذي بيده الملك، ويعرف كيف يأخذ بقوة جموع الغوغاء الغفل، الجموع الخارجة من ظلام الغزاة دائخة متعبة، إلى ضباب لا يرى خلاله إلا الذين أضاءت لهم فرنسا طريق السطوة وامتلاك حرية الشعب وتعبه. هؤلاء الفرسان الذين فاوضوا على موائد لامعة، مستديرة، نظيفة، وقبضوا فيما بعد ثمن الدم الذي سفك من أجل الثورة، جغرافية الوطن وتاريخه الجديد.

قال الراوي: و هام على وجهه في البراري بعيداً عن القرى إثر خروجه من السهرة. وكانت الريح شديدة الإعوال والثلج يهمي دونما انقطاع.

ووخزت الريح الثلجية جرح كتفه فتألم. ضغط عليه فأحس به مازال ينزف. ولمع البرق فجأة شاطباً جدار الأفق، فتوهجت السفوح وهامات الشجر وقيعان الأودية، فبدت الأرض منشورة الأكفان كيوم الحشر، وبعنف تقصفت السماء والأرض.

مال الجريح إلى كنف صخرة حدباء، تلمسها فأحس فراغاً تحتها، دخل فيه فأفضى به إلى مغارة. أشعل عود ثقاب أضاء له بقعة صغيرة، وفجأة تجاوزه حيوان، لطمه في خاصرته فأوكأه جدار الكهف ومرق.

تكور قرب الجدار، لافّاً جسده داخل عباءة قديمة. وحاول أن

ينام فصعب عليه، ونقز جرح المنجل من لسع البرد. فركه قليلاً فسرى الوجع إلى صدره ثم إلى قدميه، وأحسه يصعد من القدمين إلى الظهر والرقبة، ثم يداهم رأسه، ومع الجرح القديم يلتقي.

الجرح والحق. المنجل والعدل. الليل والنهار. البندقية والأرض. كتاب المجرّة وكتاب الغضب. أين تبدأ وأين تنتهي، ومن يحدد تخومها الوهمية المتشابكة؟

في فضاء النوم واليقظة حضرت شفيقة. ناحت:

ـ خذنا من هذه الأرض الملعونة.

وقال الجريح: الأرض دائرة لها حدود.

وسألته: ألا توجد أرض فيها أمان؟

وقال الجريح: الجند يطؤون الأرض في كل مكان.

ثم سألته: أليس للإنسان راحة؟

وقال: في زمان الطغاة لا.

ولثمت الجرح: من جرحك؟

وقال الجريح: أصدقائي جرحوني.

وقالت له: أحيّ أنت أم ميت؟

وقال: أنا بينهما.

وسألها الجريح: أباقية على حبي يا شفيقة؟

أجابت: أسأل نفسي: هل لكَ منقذ؟

وقال الجريح: أنا مسافر وحيد.

قالت المرأة: خذنا معك!

وقال الجريح: سفينتي ضيقة بحجم قمع ثمرة بلوط.

- متى ترحل؟

- حين يهدأ النوء وأغفو.

وإذ سألها: كيف علي والأرض؟ امّحت غائبة في هلام مدار الحلم.

ومن خلل الخيط الأسود البارد، تسلل فجر ضبابي ناعس، مفعم برائحة الأرض والريحان وثلوج المرتفعات المجاورة.

وإذ يمرّون به يغذون الخطى مخافة أن يعرفوه، ويسألهم سائل من غير ذويه: من هذا؟

أو يُحاسبون بالدم الذي سفك لدى باريهم، ومنقذهم الأعظم. ولكن لماذا يسبق الزمن بشر، ويتأخر آخرون؟

يولد أناس يتخلى الله عنهم إذ يقودون أنفسهم، ويحتضن آخرين سابت نفوسهم وحياتهم كأوراق الشجر الصفراء فوق تيار النهر؟

- أنت من وليُّك؟

- الله.

- وأنت من وليُّك؟

- نفسي.

- والدرك والآغوات والنواب والمحافظون والقضاة والوزراء من وليُّهم؟

- ...

وآلاف الأوراق على سطح النهر تتقلقل، والنهر يتعرج ويدندن أغنيات مكرورة لا تتغير في الأماسي والصباحات.

وفي جميع الأيام والشهور والأعوام، تجيء خيول الجند لتشرب من مياه النهر. تضرب بحوافرها أعماقه الموحلة، فلا يعتكر ولا يثور، ومع إيقاع السنابك تنسجم الدندنات المطمئنة الخائفة. وفي ليالي الخريف والشتاء تفرغ خابات المؤونة من التين والشعير والتبغ وتفرغ الخمم من فراخها. ويظل النهر يسري باسم باريه مجراه ومرساه.

«ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» إذ تعود الخيل على أعقابها.

وللمطر يصلّون في العتم خوف الكوارث أو يراهم أحد أو يسمعهم بعد أن يغيب أعداؤهم، يرمون في ظهورهم اللعنات، ويتمنون على الله أن يرميهم بشواظٍ من نار جهنم يوم القيامة، ويخدرون أنفسهم: بأن الجنة واليوم الآخر للمؤمنين الصابرين والدنيا الملعونة الفانية للكافرين المشركين.

وفي الأعياد تحمل نساؤهم أطباق القمح المجروش على رؤوسهن، ويُجرون الذبائح وأموال الزكاة، ويروون الأحاديث النبوية ويتحدثون عن الخطايا البشرية، وفي حلقات الذكر يدعو شيوخهم: مباركة أعيادكم ومقبولة زكواتكم ونذوركم وَلْيُلْهِم الصبر الحزانى واليتامى والفقراء والذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر.

وفي تلك الأمسيات يخيم خشوع سرمدي. يجثم فوق النفوس فيعقلها، ويحس كل ابن آدم من تلك المخلوقات بأنه خاطئ،

فيتلمس خطاياه الوهمية. يعيش شهوراً في ظلال الشعور بالذنب والغفران والحساب العاجل الذي ينتظره عندما يتعثر بالموت فجأة، ويحضر بين يدي الباري تعالى.

ويستمر النهر راسخاً مطمئناً في أبديته. والشمس والريح والماء نعمة كبرى. مائدة ربّانية خص بها عباده الصالحين الذين إن لُسعوا تداووا بالرقية، وإن أصابتهم الحمى سخنوا لها الزوفا وزاروا لزوالها مزارات الأولياء، يحرقون لحضورها الغيبي ذرور البخور، متمتمين بالأدعية التي لا تنتهي.

وإذ يموت أطفالهم تندب نسوتهم، ويتضرع الرجال بكآبة وصبر: «سبحان الحي الباقي الذي بيده مقاليد السموات والأرض. كل نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

وآن حدث خلل في نهر الطمأنينة اعتكرت السماء والأرض. رفضت ورقة أن تسير مع التيار فضاقت عليها الأرض.

قال الراوي: وضاقت عليه شعاب الأرض، سفوحها، وهضابها، سهولها وطرقاتها المسلوكة حتى صارت في حجم بؤبؤ العين. وتمنى لو يستطيع التحول إلى شجرة أو حجر أو حشرة، تخبئها الحفر الصغيرة فلا تبين.

لكن لتعاسته ولد إنساناً، وبقي يهيم تحت المجرات الكونية حاملاً الأكفان والدم، يصلي للرياح والسّغب ويعبد الحجارة، وفي إثره السلطان والقانون. سقطت طمأنينته في جحيم العالم بعد أن سقط من رحم أمه فاعتكر نهره ودخل في التيه.

أي شيء كان؟ أي شيء يصير؟ من هو؟ ما تاريخه؟ ولماذا

جاء العالم قبل ميعاده؟ وكيف ينسلّ من طبيعة العالم بعد تقدم الوقت؟

كل هذا يبدو الآن مختلطاً ومبعثراً بعد أن كسر حجاب الزمن وتحدى الأقوياء. بعد أن قال لنفسه: كوني فكانت.

وفي ذلك العصر الكئيب الرخو، عصر الورثة والعبيد والفوضى، إن لم يحمك قوي فأنت أحد ثلاثة: مقتول، أو خارج هارب من القتل، أو حيوان موطوء.

لقد انقطع حبل السرة منذ زمن. ذلك ما حدث لقابيل الذي يتجدد اليوم ولا أحد يؤويه أو يحنو عليه. أهي لعنة دهرية نزلت نطفة في الأرض ثم ساخت ونمت، وستظل قائمة على مدى الدهور؟ دخلت في نسغ التربة ونسغ الشجر. وليس يفتدي أحداً. وكل ابن أنثى يفتدي نفسه في عصور الفوضى والارهاب والذل والخيانة. عصور ما قبل النهوض واجتياح النار للغابة.

وواضح أنه لن يكون دهرك الأول ولا الأخير. ولن ينتهي الحديث عنك إلا عندما ينتهي الحديث عن بدايات الفصول، ورائحة الأرض غبّ الأمطار، وأنين الرياح في الليالي الشتائية وهي تزفر مع رنات المطر. ومع الذين كتبوا بالدم تاريخهم الشخصي وتركوا منه علامة ورائحة لمن سيأتي، سيُذكر اسمك.

ـ شاهين ألم تتعب؟

ـ ومن الذي لا يتعب.

ـ شاهين مُتْ لنرتاح.

ـ من هذا البطل الذي يتقدم ضاحكاً نحو الموت؟

- شاهين أنت وحدك.

- هذا زمان الموت الفردي.

- شاهين لست ثائراً.

- ولكنهم ضربوني لأن القمح أمحل!

- شاهين ولدتَ قبل أوانك!

- لن يُمسكَ ابني رسن الحصان وركابه لشرطي وهو يركب.

- ادخل هذا التابوت.

- سأموت على سطح الأرض.

- لكن الأرض أنهكها الدم ولمّا ينهض الشجر!

- الأرض تحتاج مزيداً من الدم.

وليل إثر ليل، ومكان يصل مكاناً، وهجرة الوحش الذي أنكرته القرى مستمرة إسراءً مطوقاً بالهلع والخوف من الغدر الكامن في منعطفات الدروب، وخلف الصخور وفي الأجم الهادئة.

نجاة ولا نجاة، وحبال مقطوعة. وفوق التلال البعيدة والسفوح داخل دائرة محيطها كمحيط اليقظة والنوم، تنهض قامات الدرك بثيابهم الزيتية وقبعاتهم المنكفئة، يبنون سداً لا تنفذ منه ذبابة، يحدقون وبنادقهم مسددة وليس ثمة ثغرة حتى كخرم الإبرة، وفوق سطوح المنازل وفي الساحات ينتشر الفلاحون. معهم عصي ومناجل وآلات حادة. وهو في الحلقة يدور كحيوان مطوق، يصرخ فيموت صوته، يسدد بندقيته فتتحول في كفيه قضيباً رخواً. يضغط فلا يسمع صوتاً، ويتقدم الفلاحون بوجوه

مربدة قاسية، وجوهٌ غار من عيونها الفرح القديم، وبقوة يمسكون به. يسلمه أحدهم لجاره والجار للآخر، فلا يبكي ولا يصرخ. يعبر فوق راحات الفلاحين المرفوعة كدرج السلالم ويتسلمه الجنود. وبنشوة وظفر يقول له قائد الدرك العام وهو يتلقاه: ها قد وصلت أخيراً يا شاهين!

12

قال الراوي: وليس يدري كم نام واستيقظ، وما يزال السفر يدوي في صحارى نفسه التائهة، لا من القرى يقترب لتؤويه، وحتى جلده ضاق به. وأصابه ألم ويأس لا حدود لهما.

- أين تقع حدود مملكة شقاء الإنسان؟

وتمنى أن يستريح الدرك. لو كفّوا عن طلبه لاختار أقصى بقعة في نهاية الأرض وعاش فيها. أرض صغيرة، وبضع عنزات، وبقرة، وثور حراثة. تحلب شفيقة العنزات والبقرة في الأماسي بعد أن يعود من الرعي وفلاحة الأرض، وتطعم أطفالها الحليب وقطع السمن. وفي أوقات الغرس يغرس فسائل الكرمة والحور والرمان على تخوم الأرض الخضراء. وفي مواسم التبغ يشتلها ويعشبها. وللمطر والريح يصلي ويغني. أما كان الله سيغفر له وينسى!

ولكن...

في طول الأرض التي داسها وعرضها. في مفازات الدروب الوعرة، وعلى السفوح المرشومة بالشوك والحجارة. على مطالّ الصخور الرمادية والمرتفعات، كانت دماء قتلاهم مطلولة. اختلطت بالمطر والتراب والحصى والعشب. جففتها الريح والشمس وما جفّت ثاراتها في نفوسهم العصية على المغفرة.

وكحدأة سوداء نهمة، تبحث عن فراخ الدجاج في البراري لتظفر بها وتغتالها، كانت روح الثأر تهوّم فوق القرى والدروب، تفتش عن فلاح متعب يائس، يهيم منفرداً على وجهه فوق سطح الأرض، بعد أن رفض الانحناء وسقوط حياته تحت أحذية الجوع والذل وأحذية الجند.

لم يأوِ إلى المنازل في أواخر ذلك الشتاء. صاد الأرانب والثعالب وسناجب الغابات. حشّ أعشاب البراري، وأكلها. وعلى الطوى بات ليالي حرى. وفي الليل انقطع إطلاق الرصاص، لكن غارات الجند المفاجئة لم تنقطع عن بيوت الفلاحين الفقراء، تطلب الفارّ، وإذ لا تجده تطلب الدجاج والسمن والحليب والتبن والمبيت.

ومع الصباح يرحلون نحو قرية أخرى. عن الطرقات لا تخرج فصائلهم. وإذ يراهم الفلاحون قائمين فوق سروج أحصنتهم، بنادقهم معلقة وأحزمة الرصاص تتصالب على صدورهم، ينهبون الطرقات وكأنهم متجهون نحو معارك حربية مع الأعداء وهم يدخنون تبغ القرى، يوشوش الفلاحون:

ـ يبحثون عنه على الطرق العامة المأنوسة.

ـ وكأنه مهندس طرقات.

ـ معلوم. الطرق آمنة. لا شاهين ولا من يحزنون.

ـ وماذا يخسرون. مشاوير صباحية ودخان ودجاج وأمان.

ـ درك بني عثمان أكل ومرعى وقلة صنعة.

ـ أولاد الحرام. الواحد منهم ينزل عليك ضيفاً. تطعمه وحصانه ثم تكبس له العلبة دخاناً وأحياناً تنام على الأرض في سبيل أن ينام مرتاحاً في سريرك، وعندما يفيق صباحاً يودعك

بضبط بالحطب أو المزبلة. تسأله: ما هذا؟ فيقول لك: القانون هو القانون. أنت تقوم بواجبك وأنا أقوم بواجبي.

- لو يطلع عليهم الآن!

ومن التلال وخلف الصخور راقبهم كثيراً، وكانوا على مرمى بندقيته. ظهورهم عريضة، ومؤخراتهم تخبّ فوق السروج إذ تخبّ الخيل، ورقابهم ملفوفة بياقات المعاطف الصوفية، عائدين أو موغلين على الدروب نحو القرى الآمنة.

- لو يطلع عليهم!

خارجٌ ولدته الأرض جنيناً غضاً كهليون التلال البرّي، متوّجاً بالحجر، آنياً كندى الصباحات الراحل مع طلوع الشمس، شبيه مطر يسقط فجأة في فجر صيفي يسحل الغبار، ويبشر بالسيل الغضب. وفي الأرض العطشى يغل.

قال الراوي: وكانت تداهمه رحمة مفاجئة إذ يراهم عابرين. ويتذكر أن لهم أطفالاً ونسوة وأنهم يريدون العودة إلى بيوتهم أحياء.

ويجيء صوت الصبي من غيابة الذاكرة سائلاً: أمي. هل مات أبي؟

- أبوك حي.

- أنا ولد يتيم.

- أبوك حي.

- ولكن أين أبي؟

- في الريح والمطر وصوت الغاب.

- رأيته في الحلم يموت.

- هو هناك فوق الأرض، في جميع البراري، قائم، وماكث في التراب كجذور السنديان.

وكانوا يراقبونهم من الطرف المقابل وهم يضربون الأرض بحوافر خيولهم، يجنحون عن السفوح الوعرة طلباً للأمن، والزمن شتاء.

ونحو بيوت طينية تحتاج سقوفها دعامات من أشجار الحور، كانوا يجنحون هم أيضاً، بعيداً عن شاهين بعد أن يغادر الدرك.

مواقدهم تطلب مزيداً من جذور وقرم السنديان، لتلتهمها في الليالي الصقيعية، وماعزهم تهوى تسلق الصخور، لتتطاول على ذوائب الشجر الأخضر.

وفي الخريف القادم، وأوائل الربيع، ستشتعل الحرائق في سفوح الأراضي البور الموحشة، وتضرب مناجل النسوة والرجال جذوع أجم الريحان والسمّاق ودغلات العلّيق. وفي الفضاء على مرأى من المخافر سترتفع عالياً غلالات الدخان الأبيض متموجة تسحبها الريح فتنشرها عبر الوديان. بقع صغيرة محروقة بحجم الأطباق تعرّى. تصير صالحة لزرع حبات من القمح والشعير والذرة، وأشتال التبغ، يركشها الفلاحون في الأصباح الندية بفؤوسهم كيلا يجوعوا وحتى تحيا بهائمهم الضامرة.

هكذا كانت الطبيعة داخلة في حساب معادلة الصمت والتخلي، مشتبكة على نحو لا إرادي مع هاجس الطمأنينة الغافل والنزوع الفردي مقطوع العرى.

كانت المحايدة نسبية. وُلدت بين حالتين اعترضهما الاستلاب على نحو أقل فاجعية بين المطلوب دمه، والأنين الصامت للقرى الراضخة.

كان ذلك كله شبيهاً بضباب ممتد، يغطي بانتشاره اليومي قيعان الأودية وبيوت الطين والزرائب ومكادس الحطب قرب البيوت، لكنه كان يتبدد على تخوم سيغاتا المهجورة وفوق صخورها الوحشية.

كذلك كان العصر الوطني، قيلولة ضبابية، ملوثة ومنهكة. ولدت كلقيط وارث لملك عاقر، ضاجع زوجته فاتح قدم من خلف البحار، لوّث النسل قبل ميعاد نمو الأطفال الحفاة، ورثة الأرض الشرعيين والذين نبّأ شاهين بأصواتهم القادمة.

وبعيداً، عن قرى اللاذقية الفقيرة الخانعة، كانت تلك الضبابة تتلوى وتلتف، مغطية الخنا والكذب وسرقة الأراضي والبشر وتسليم الأوطان، وتهجير قوافل الفلاحين وزجهم في حروب خُدعوا بأنها من أجلهم، فماتوا فوق روابي وتلال صفد وكعوش والعزيزيات عراة بلا كفن، دونما شاهدة ولا فاتحة. توضؤوا بدمائهم وغبار أرضهم المستلبة، عندما كان الوارثون يتوضؤون بأنهار الويسكي المنهمرة من النساء اليهوديات وأفخاذهن البيض الشهّاء.

وفي مكان ما في الأرض ربما، وفي نفوس الذين توجهوا نحو سموات الغيب، داخل الأرحام التي لم تحبل بعد، على حافة سقوط الإنسان وعبوره. في أي من هذه الأماكن الغامضة كان يكمن ألم لا حدود له، يسعُ الأرض والسماء، ويسدّ جميع المنافذ في وجه الإنسان التائه والبشير، الإنسان الباحث عن وطن صغير مطهّر من الدم والبؤس وآثار أحذية الجنود.

لقد بدا الوطن فيما مضى شاشة باهتة، تهتز عليها غطرسة جنود الغزاة الذين اجتازوا الحدود من الشمال والجنوب والغرب

وعبرت قوافلهم الفاتحة مياه المتوسط نحو أراضي الشمس الساطعة وحقول النفط والحريم.

وإذ اهتزت الشاشة معلنة قدوم البرق الذي جاء يكتسح الظلام ويشفي جراح الأرض القديمة، حاملاً معه المطر، انتظر الناس ما سوف يحدث لهم ولأرضهم وضروع ماشيتهم.

وفيما بعد ربما عرفوا بصمت أنه برق كاذب، خدعهم في ليلة صيف وما نبّأ بخصب.

غير أن ذلك حدث في جميع العصور، ربما. وللعرب أكثر من غيرهم بعد رحيل الفاتحين: أن يولد طفل ناقص، قاصر عن النمو، وربما من شهوات الذين كانوا ثم رحلوا، يسمونه الوارث الشرعي، يزوّجونه السلطة والوطن ليكون استمراراً للنسل الغازي على نحو مختلف.

وهكذا. أية ملامح لم تكن واضحة لما سيلي ويكون. وبدا أن مصيراً قاتماً مرتعشاً هو قدر القوم، وأن سنوات طويلة من الألم والدم ستعبر فوق ظهورهم قبل أن تهتز الأرض بالرعد والمطر.

13

قال الراوي: وفي ليل ثلجي أوغل شاهين نحو الشرق، صوب الجرود البعيدة المهجورة. في يده عصاه وعلى كتفه بندقيته المدلاة تحت سترته، معمماً رأسه بكوفية سوداء، سارياً بلا هدف معين.

هرَب وتعب. أعوام طويت في براري يستوحش فيها الوحش، ومازال مطارداً خارج ممالك الأنس. لا أحد. لا مأوى. لا شفاعة. وفي مطاوي الآفاق سرى اسمه ملعوناً وممجداً. وفي برديه الجنة والنار. وفي برديه اليأس والمكابرة، والآفاق ضيقة في ذلك الزمن العصيب، لكن روحه العاشقة للحرية وخرق الآفاق كانت تهيب به أن: استمر. الأيام ضيقة هي الأخرى، والناس ضيقون أيضاً. والغربة الوحشية أنحلت الجسد، سحبت الوميض من عينيه الوعريتين، ومعابر نفسه كانت غارقة في الضنك والمرارة.

خطوات. خطوات. والثلج يلطم وجهه في الظلام الحالك، محدثاً في رأسه دوياً من الوجع، وحذاؤه المشروخ كنفسه، مزّقه الوثب والجذور ومسننات الصخور.

ـ لماذا يتحول الإنسان حيواناً مذعوراً يطلبه القانون؟

وعن بعد لاح له ضوء خافت أحس به استراحة دهر في مسيرته الطويلة فوق أرض المصائد. انحدر نحو الضوء، تاركاً

خلفه التلال، وهارباً من ندف الثلج القاسي، وإذ أشرف على الضوء لاح بيت منعزل بين أشجار الحور والجوز العاري.

وأبطأ الخطو. متمهلاً تقدم حتى حاذى الجدران، وصوص من خصاص الباب فرأى عجوزاً نحيلاً اقتعد حصيراً رثة وراح ينسل أوراق التبغ قرب نار موقدة.

هجمت موجة ثلج، ثم قشعريرة، وفي البعيد لاحت غابات عارية تتلقى المطر والريح، ثم سماء وأرض بلا مأوى ولا دفء ندهت له جميعها: أن ادخلْ فدخل.

تلفّتَ الشيخ المسن صوب الباب، فسكن بصره على القادم:

ـ عندك مكان لغريب يا عم؟

ورد الشيخ: الغريب من لا دين له. البيت بيتك.

نهض. وراح يتفرس فيه.

ـ ارمِ سترتك. تبدو برِداً ومتعباً.

ورمى السترة، فلاحت البندقية. نزعها وعلقها على مسمار عمود البيت وعاد يتدفأ بوهج النار.

ـ أنت وحدك هنا يا عم؟ وراح يجوس بعينيه أرجاء البيت.

ـ الأهل نيام.

ـ بيتك مريح. وتنهد باختلاس وتوجّس ثم أردف:

ـ هل توجد بيوت أخرى في الجوار؟

ـ البعد عن الناس راحة للبال.

قدم له علبة التبغ. وعاد إلى مجلسه: ارمِ جزمتك.

ـ لا. لا بأس.

- أنت هنا في أمان.

هز رأسه بأسى وهو يدرج سيكارة: الدنيا ليس فيها أمان. الإنسان لا يعرف ساعة الغفلة.

- من أي بلاد بالسلامة؟

رنا إليه بتوجس: من براري الغرب!

- وإلى أين تشرّق؟

أفرد من النار المتأججة عوداً متقد الرأس. أشعل منه، ومجّ الدخان بشبق ثم التفت إلى الشيخ: تائه فوق تخوم الأرض من مكان إلى آخر.

- زَوَره الشيخ بعينيه: هل تطلب أحداً؟

- لا.

- ما خطبك؟

- رجل مطلوب!

- بدم؟

وأومأ برأسه وهو يمضغ الدخان الطري.

- قاتل؟

وصمت.

- فراري؟

ولم يجب. كان يتطلع نحو السقف ويكتشف البيت.

- لماذا قتلت؟

ومن رأسه الموجع صرخ بالعجوز بصوت وحشي: إيه.. أأنت الديّان حتى تسألني جميع هذه الأسئلة؟

وابتسم الشيخ: أنت في بيتي وأنا رجل آمن.

ـ هل أنت خائف من وجودي؟

ـ ربما...

وداهمه الحزن والفقد القديمان. لو تفتح الأرض له شقاً ويغور فيه. لو أن حشرة وقعت يوماً في رحم أمه واستراح. لماذا لا يتعطل دماغ الإنسان ويصير بلا حس كالحجر؟ يموت اخضرار الذاكرة وينتهي ذلك الوعي النغل من حالة رقوده النصفي إلى حالة من الرقود السديمي المطلق.

وما فائدة الإنسان من كل التعب، من كل الصراخ، ومن كل الحزن؟ آنذاك يبدو العالم سهلاً ومقبولاً ومعمماً بالسلام: لا خوف. لا قتل. لا مطاردة.

وفي لحظة خاطفة أحس بأنه يحسد الأشجار القائمة في السفوح، والصخور النائمة تحت الثلج، حتى الذئاب قليلاً من الحزن ما تعرف، وقليلاً من الأذى.

وإذ همّ بالنهوض سأله الشيخ: ألست جائعاً يا شاهين؟ ارتعد من المفاجأة. عاد فجلس. وسمّر على وجهه عينيه. تمتم الشيخ وهو يرتّب أوراق التبغ بعضها فوق الآخر:

ـ أيها الطفل التعس. لكم تثير رؤيتك المرارة!

وصمت شاهين.

ـ ربما أنت لا تدري ماذا صنعت. نحن أيضاً مثلك لا ندري.

حدث الأمر كله كحلم. ولكن...

وهز العجوز رأسه بأسف واضح.

شبك شاهين يديه فوق ركبتيه المطويتين قرب موقد النار

المحفور في أرض البيت، وراح يحدق في الشرارات التي تنفجر فوق سطح النار.

- مثل هذه الشرارات التي تصعد نحو السقف ثم تنطفئ قبل أن تصله. ذلك ما كان.

وإذ قام الشيخ الوقور ليحضر طعاماً قال: ذلك كان محزناً، محزناً لنا جميعاً يا بو علي.

طمأنينة صغيرة تسللت. انسرب معها دفء في ليل غريب أوحى به هذا الشيخ الغريب الذي عرفه ولم يره من قبل.

كان الثلج يندف في الخارج، متراكماً إزاء الجدران، وفوق الأسطحة، وعلى رؤوس الأشجار والصخور. وريح شرقية تتوجع في ضلوع الحور والدلب. حيوات جميع الناس الآمنين غافية بهدوء تحت عباءة الليل.

- ولكن كيف عرفتني يا عمي الشيخ؟

سأله وهو يقترب حاملاً معه طبق الطعام.

ابتسم الشيخ: وجه الخائف التائه لا يخفي نفسه.

- ولكن الريف معبأ بالفرارية!

وقال الشيخ ببعض أسى: في كل الريف من جبل «الشعرة» حتى تخوم البحر لم يبق رجل معه بندقية. ومن بقيت لديه حتى بارودة صيد، حفر لها في البراري وغيبها في أعماق التراب. وبدأ شاهين يأكل. كان جائعاً كحيوان.

- سلّموا أسلحتهم يا بني. حتى الخناجر صودرت من البيوت.

بالنسبة لهم الحرب انتهت عندما بدأت أنت الحرب. كان يأكل وينظر إليه، مسحوراً بكلماته.

وعاد الشيخ إلى مجلسه فوق جلد خروف كثيف الصوف، وبدأ يلفّ حزمة التبغ. طواها حتى صارت في حجم قبضة اليد. أمسكها بكلتا يديه وهصرها. نفخ فيها ثم رفع فخذه وأنامها تحته: خافوا من الدرك. التسليم كان وسيلتهم للتبرئة من التمرد.

قال وهو يمضغ لقمة: ولكن أنا لم أطلب مساعدة أحد.

- أعرف.

ومع لذة الطعام امتزج حس الأمان بالدفء. تناول الشيخ سكيناً سوداء المقبض، راح يسنّها ولفافته في فمه معلقة.

في ساحة الضوء الخافت لاح وجه الشيخ وهو يشحذ السكين، هادئاً كبحيرة تحت شعاع القمر، كذلك لحيته الناصعة كثلج التلال كانت توحي بالسر والوداعة.

ودون أن يرفع رأسه قال: لقد قتلوك يا بني!

بيد قديمة مدّها تحت فخذه تناول قبضة التبغ. توقف شاهين عن الطعام لحظة. تملّى الشيخ ثم قال: كانت حربي يا عم وليس في نفسي ضغن لأحد.

فجأة قال الشيخ: حدث للحسين ما حدث. قُطع رأسه يا بني وظل للناس عاشوراء من بعده.

وخفق قلب كبير صلب ما روّعه الوحش ولا القانون.

بتوجس تمتم شاهين مأخوذاً: ولكن لماذا يحدث ذلك ياسيدي المحترم؟

كان الشيخ يقطع كرة التبغ على خشبة قديمة. وإذ قطعها توقف قليلاً ورنا إلى شاهين: السكين يا ولدي هي السبب. في نفس كل منا سكين أحدّ من هذه. ورفعها على مهل فالتمع حداها تحت بهق النار.

ـ سكين تقطع الأواصر وما وصلته الأرحام، كما تقطع هذه الكرة. بعدها نتيه كزورق في بحر مات جميع بحارته.

واكتسب الطعام في فم شاهين طعماً آخر، يشبه طعم البخور والريحان. كذلك فاح التبغ برائحة مماثلة، وانتشرت الروائح كأنها تتصاعد من مجمرة عتيقة وضعت على ضريح في قبة مغلقة، وداهمه إحساس خافق. آلمه رأسه، وأحس بجسده يرتعش برداً وخوفاً.

قال الشيخ: إننا نموت في النهاية. تلك هي حكمة الباري تعالى. بعضنا يعرف قبره، وبعضنا ينشر جسده فوق الأرض ويضيع. لا قبر ولا شاهدة، يمتزج بالتراب وجذور الأشجار والنسوغ. يسري مع المياه في مواسم المطر. ويغلّ في سائر الأرض.

كان الشيخ قد بدأ فرم التبغ فوق الخشبة القديمة الصفراء. ومع الفرم كان جذعه يهتز.

تراجع شاهين عن طبق الأكل. غمره حزن، امتد فوق غمامة خوف، وتذكر عبوره: طفولته، وصباه. العرس والصبايا المورّدات حول مرسح العرس والفتيان يمسكون بأيدي الصبايا بينما الجميع يرجّون الأرض نضارة وتوقاً للحياة. ثم أصوات الشيوخ في حلقات النعي يوم مات أبوه: الله الباقي، الله الحي، ولا تدري نفس بأية أرض تموت. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. يا أيتها النفس المطمئنة عودي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

وهزته قُشَعريرة.

قال الشيخ: لماذا لا تأكل؟

ـ شبعت ياسيدي.

وأوغل في وجهه القاسي الضعيف، فرآه سابحاً فوق بحيرة من الحزن والشقاء.

- لا تحزن يا شاهين. لقد أحبوك بقلوبهم وسيذكرون ذلك في أزمنة الضيق. كنت رجلاً يا ولدي حتى في خطاياك.

تنهد شاهين: وهل أخطأت يا سيدي؟

- أجل أخطأت. أنت بشري والبشري ليس معصوماً والعصمة لله الفرد.

- لكنهم ضربوني حتى أسالوا دمي!

- هم أيضاً أخطؤوا. صدم الخطأ نفسه في ساعة شرّ وليس أحد بمنجى.

- أكان ذلك عدلاً؟

كان الشيخ ماضياً في الترنح وفرم شعيرات التبغ الشقراء وكأنه في حلقة ذكر. وسأل الشيخ: ولكن من يقرر العدل؟

صمت شاهين قليلاً. هل الله يقرر العدل والإنسان يقرر خرق العدل؟ لكن الإنسان ضائع فوق الأرض بين الله والقانون وهو الذي يخسر دائماً.

وقال شاهين: لا أدري. من يُهان ويُسلب هل يسكت؟

ورد الشيخ: وهل البندقية تردّ الإهانة؟

- من يردها إذن؟

- العقل يا ولدي. عندما يصدم الخطأُ الخطأَ يقع الشر.

- لكن الدرك هم شر هذه القرى!

ورفع الشيخ رأسه. توقف عن الفرم وحدّق في وجه شاهين:

ـ ربما كان رأسك الموجوع يقول ذلك. وأيضاً تاريخ الدم بينك وبينهم. غير أن الأمر يختلف. الدرك ناس بسطاء كفلاحينا يريدون العيش بسلام في بيوتهم قرب نسائهم وأطفالهم. لقد دُفعوا إلى حربك مكرهين ليؤدوا واجباً فرضته عليهم الحياة والواجب.

وقال شاهين: ولكن لماذا يضربون إنساناً حتى يسبح في الدم وهو موثق؟

وتمتم الشيخ: ما حدث قدرٌ من الله. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. لك الله يا بني. لك الله. ربما كنت فدية قومك. من يدري!

في الجرود العليا، كان بيت الشيخ يقوم، منفرداً كقبة صوفية، بدا وكأن الشيخ اختاره لنفسه بعيداً عن الناس، يتنسك فيه ويستقبل الذين يعبرون طريقهم نحو السهول الشرقية التي تقوم خلف خطّ الجبال النهائي.

كيف التقى به طريد العدالة، كيف سيق إليه بحدس سري خارج عن الغاية والقصد؟

هو هنا أخيراً. بعد أن تقطعت أسبابه، ليس مؤمناً ولا كافراً. قاتل ومقتول. ملك يده بندقية. وفي نفسه كل رحمة وغضب الأرض.

إلى أين تؤدي الدروب لا يدري. يبحث عن شفاعة، وعن أرض تلجؤه. يهرب من القتل، والقتل يسد عليه المسارب. وفي كل مكان الناس يتحدثون عنه. يعرفونه ولا يصلون إليه وقليل منهم ينشد له الفوز. وفي تلك الليلة العجيبة روى الشيخ له حكاية:

كان في قديم الزمان رجل عادل لا زوجة له. استوى يوماً

ملكاً على قومه فأحبته رعيته لعدله وأحب الناس. وفي قصره عاش كما يعيش الملوك، لكنه كان يحيا خارج القصر حياة خاصة تختلف عن حياة الملك.

أحب الملك الشوارع والسكارى، والمغنين والمنبوذين والخبازين والحدادين فكان في أخريات الليل يتسلل وحيداً من قصره، بعد أن يتزيا بزي رجل من عامة الرعية، إلى خمارات المدينة، يشرب حتى يثمل، ثم يمر على عمال الأفران السهارى، وعلى الغرباء في خانات المدينة والفقراء النيام فوق أرصفة الشوارع، ينثر لهم ما في جيبه من الذهب ويشرد مع بعض المتشردين يسرحون في الأزقة يغنون ويرقصون، ولا أحد يعرفه.

وعلى هذه الحال استمر زمناً. لم يكتشفه أحد، وبحياته السرية المفعمة بالحرية والعدل والفوضى، كان سعيداً. ذات مساء كان ثملاً كعادته، يغني مع رهط من صحابه المتسكعين قرب دارة الملك. خرج إليهم الحارس وصرخ بهم.

خاف الصّحاب من الحراس فهربوا، وبقي الملك وحيداً. اقترب منه الحارس ونهره: ماذا تفعل هنا أيها اللص؟

وراح الملك يغني دون أن يبالي.

حاذاه الحارس وشتمه: هيّا معي إلى السجن!

وسأل الملك: أتوجه الكلام لي؟

قال الحارس: لا. للحائط. هيا قلت لك وإلا...

وقال الملك بهدوء: ولكنني لم أفعل شيئاً يوجب سجني!

نبر الحارس: أنت تزعج حي الملك ونومه الهادئ.

وغنى الملك: أنا أغني.

هتف الحارس: تغني. أجل تغني. هيا نغني سوية في السجن. أنت عدو الملك.

وسحب الحارس سيفه.

وإذ رأى الملك الأمر جاداً قال للحارس بثقة: أنا الملك يابني.

وسخر الحارس مقهقهاً: تعال. تعال. أيها الملك اللص! وصاح بالحراس فاجتمعوا. اقتادوه إلى السجن بعيداً عن القصر. وضحكوا منه ساخرين وهو ينادي بأعلى صوته: يا قوم أنا الملك!

تجمع الناس عليه فأنكروه، وهزؤوا منه. وقال الحراس: هذا المعتوه يدّعي أنه الملك. لقد جاء لقتل الملك في الليل.

واهتاج الناس فهجموا عليه. وإذ ضُرب لعنَ الملك وأهله فضربوه. ولعن الملك أيضاً فانهالوا عليه حتى قضى.

في الشوارع سحبوا جثته ومثلوا بها حتى صبغت الأرض بدمه. قطعوا رأسه وعلقوها على بوابة المدينة، وفوقها كتبوا: هذا جزاء من يشتم الملك ويخونه!!

وفي الصباح عرفوا ما فعلوا. فأصابهم حزن وغم.

وندبه الفقراء والسكارى والشحاذون والذين لا منازل لهم، وغنى له الشعراء قصائد حزينة. وفي المساء نصّبوا مليكاً آخر.

أتعرف ماذا حدث لهذا الرجل يا بني؟ لقد ظلت جمجمته ألفي عام سائبة فوق الأرض، وإذ مرّ بها أحد الأولياء ومعه قومه سألوه: ما هذا؟ قال: هذه جمجمة رجل رفضته النار والجنة فبقي منشوراً على سطح الأرض.

ولم يصدقوا فضربها ولي الله بعصاه وقال لها: تكلّمْ يا عبد الله. فاهتزت الجمجمة وراحت تروي أمام القوم ما حدث لها قبل الموت وبعده، وكيف ذهبت إلى النار فقيل لها اخرجي، ثم اقتيدت إلى الجنة فصاحت بها الملائكة أن تخرج، وكتب عليها أن تظل هائمة حتى يوم الدين.

خدّر الدفء والتعب جسد شاهين، وأرسلت الحكاية في حنايا روحه نوعاً من الخوف والغياب وراحة الاستسلام. وحضره نعاس قديم مفقود. وقال لنفسه: لابد أن هذا الشيخ من أهل التُّقى.

وسأل الشيخ: هل تؤويني في بيتك يا سيدي هذه الليلة؟

كانت الريح تشيل في براري الليل، حاملة أزمنة الوحشة وصدى المنفى ودوي القفر. والثلج فوق الأرض ما برح يهمي كالأكفان، فارشاً الدروب والأودية، وصوت نواح الأشجار يمتزج بأصوات الذئاب الهائمة فوق ثلوج المرتفعات.

ورمقه الشيخ بعتب: ولم لا. أقرب بيت يا ولدي لن تصله قبل الصبح. تنام هنا وفي الفجر ترحل نحو هدفك.

كان الشيخ قد أنهى فرم تبغه. فركه براحتيه ثم فرشه فوق الحصير. نهض إلى سدة عليها فراش، حمله وجاء به فمدده قرب النار التي راحت تتخامد: أتشرب زوفا قبل أن تنام؟

تثاءب شاهين: أنا متعب كثيراً يا سيدي.

ـ كما تريد.

واستلقى بجزمته وثيابه على فراش من صوف. رمى رأسه فوق مخدة طرية ليست من حجر فشعر بالراحة والهدوء بعد عام من التعب والإنهاك.

شبك أصابعه تحت رأسه وراح يحدّق في السقف.

كم من الزمن مضى قبل ذلك على غير هذا النحو؟ كيف افتقد الأمان وعذوبة الأشياء الطرية، وبساطة حياة الذين يضمهم بيت، جدرانه من طين وسقفه من خشب وتراب، ولا ذعر.

الزمان الذي مضى، والزمان الآتي. اليقظة والغفلة والإنسان بينهما. التيه في أرض هادئة ومضطربة، ومحاولات الخروج، وفقدان الأشياء الممتعة عندما يلج الإنسان التيه متخطياً حدود الشفاعة. حدود ما كان، وما ينبغي أن يكون.

هل لحكاية الشيخ معنى؟ ومن يكون الملك ولماذا قتلوه؟

وأنا ما صلتي بهذا كله؟

وإذ لم يلتق بجواب. أرخى النوم جفنيه ونام.

ورمقه الشيخ يغفو كطفل متعب، فقام هو الآخر لينام.

خارج مملكة اليقظة في الظلام السابح، حضر الشيخ بثيابه التي تشبه الثلج: سيغني لك الناس ردحاً من الزمن لأن موتك أسطورة افتقدوها ثم ينسون.

- يغنون لي؟

وتمتم الشيخ بهيبته الملائكية: سيكون حزن وبكاء وحسرات. هؤلاء يا بني قوم عاشوراء. يحزنون على الميت ويبكونه، يضربون صدورهم ووجوههم حتى الإدماء وينتظرون الذي سينهض يوم القيامة ليزيح عنهم دهور الألم والإثم.

واندغم الذعر بالتعب، والوسن بماضي الزمن. وداخل طيف موشّى بخيوط سوداء وزرقاء وبلا لون، تلألأت النبوءة: محمولاً عبر الأودية وأيدٍ مرفوعة كالرماح تنقله نحو مدن غريبة لم يرها.

رجال ملثّمون ورجال حمر الوجوه ورجال لا وجوه لهم. حُفر وخنادق بعدد البشر، وامرأة تبكي وتلطم وجهها. تفك أزرار ثيابها وتمزقها. تركض عارية بين البشر، والبشر يتناكبونها. ولا أحد يبالي. أطفال صغار يلعبون في ساحات قرى، وآخرون يبكون، والفضاء أصفر وحزين. أناس بلا بسمات ولا أنوف ولا عيون والغيم يتراكض نحو البحر. ها هي سفينة خضراء قرب شاطئ جميل راسية تنتظر. يسقط في الحفرة ويغيب، ثم يعود محمولاً فوق الأكفّ المشرعة كالرماح. وفي السفين يوضع النعش ثم ترحل السفينة وتختفي البحار الزرقاء الجميلة. ومن غيمة فوق الأفق يخرج الشيخ. يلفظ الإسم. يصرخ ولا صوت: يضربه الشيخ بعصاه: اعترفْ يا ولدي.

يتأتئ: لم... لم أخطئ.

- الغيبيون يريدونك أن تعترف.

يتعثر: لست... خاطئاً.

- أنت في الحضرة الأخيرة وموتك تعجيل بالقائم.

- أنا لا أذكر... شيئاً... أنا لا أعرف...

- القوم ينتظرونه ومعهم الحصان على باب السرداب.

- أنا... أنا رجل بريء...

- يجب أن تموت مع جميع الناس لينهض الذي عينه لا تنام. الموت حق. الموت حق.

- سيدي.

- جميعنا خطاة يا بني. تعال إلى هنا وادخل في التيه. أنت الجمجمة يا ولدي ولن يقوم قبل ظهورها مرة أخرى.

- سيدي.

ـ اعترفْ ليكون العدل وتعمّ الرحمة وتُمحى الخطايا. بعدك سيكون عدل ورحمة ومحبة.

ـ أخاف... أخا... ف... أن... لست خاطئاً.

ـ لك في القصاص حياة فاقتربْ يا بني. إنني أذبحك من أجل منجاة العالم وسعادته.

السكين نفسها: سكين التبغ تلمع بيضاء كالثلج. هي ذي تبرق خاطفة الروح من الرقبة: لا أريد... لا... لا... آي...

وأيقظت الصرخة الشيخ فقام. مشى نحو شاهين ثم انحنى فوقه برفق وهزه. كنمر مجروح وثب خارج الفراش. ووضع يده على البندقية.

ـ كنت تصرخ في نومك!

وتذكر. همد وجيب قلبه رويداً فترك يده تسقط عن البندقية وظل فترة من الوقت واقفاً. هل يرحل أم يبقى؟

وهدّأه الشيخ. سكّن روعه وطلب إليه أن يعود إلى الفراش.

لفّ له سيكارة فعاد إلى الجلوس. وانهمك الشيخ في تحضير الزوفا.

كان شاهين ينظر إلى الشيخ بغضب ورعب، وهو متكئ غارساً كوعه في جسد المخدة، وفي رأسه الوجع وأنين الريح.

ظل صامتاً حتى اقترب الفجر. يدخن ويشرب الزوفا. ومع الخيط الأول لضوء الفجر قام. تمنطق حزامه وفي كتفه علق بندقيته وودع الشيخ.

على عتبة الدار سأله الشيخ: أتعرف الطريق ياشاهين؟

رنا إليه، ثم ابتسم بمرارة خفية. لم يجب واستقبل الشرق.

وظل يرنو إليه وهو يوغل في دروب الأحراج الضيقة، حتى لاح كالشبح تحت خط الفجر البنفسجي.

كان يمضي مسافراً وحيداً، يخبّ فوق ركام الثلج الأبيض، بينما كان فجر يوم جديد يزهر ويتفتح من وراء الجبال المكللة.

14

قال الراوي: ومع غروب الشمس سلّموه.

كان السفر قد استمر منذ الفجر. كل ذرة من جسده كانت تنضح بالتعب. وكانت نفسه متعبة أكثر.

رحلة مضنية استغرقت عمراً في تقاويم البراري والخروج، لكن شاهين لم يحلم يوماً بسكين الخيانة تنغرس في ظهره بيد الذين يصله معهم رحِمٌ ودم.

مع غروب الشمس سلّموه.

وقال خاله: خبئوه في الداخل خوف العيون.

وإذ رأى وجه وبندقية أول جندي من السرية التي طوقت المنزل أدرك بأنه سقط في المصيدة.

ـ أخيراً أتت لحظة الغفلة.

وبكل ما في الإنسان البري الرافض للموت، وكما كان يحدث في أزمنة المحن السابقة، رسم كالبرق خطة القتل والجرأة والعبور.

حين وثب ليمسك بندقيته، نترها خاله بعيداً عن مرمى يده. بالحراب والبنادق طُوّق. وفوق جسده أطلت وجوه الجند مذهولة لا تصدق، كذلك وجوه الذين خافوه.

ـ أهذا هو شاهين؟؟

وبين وجوه الجند المنتصرين فزعاً، وعيون الخونة، نقل عينيه المتعبتين. نحو خاله الخائن، الواقف جداراً من غدر، رمى عينيه ثم بصق: كلب. جبان.

وبيأس الذي حاصره الموت أخيراً، وثب الفهد المطعون.

أمسك برقبة خاله وضغط بيديه الحرّتين ويأسه وأحقاد سنوات العذاب. كزّ وضغط فطقطقت تحت راحتيه غضاريف الحنجرة وخمد الصوت متحشرجاً.

ومرة أخرى ضُرب ذلك الفلاح المحاصَر على رأسه وظهره ووجهه، بأعقاب البنادق وعصي الدرك حتى أدمي جسده وكان أعزل أيضاً.

مع الغروب سلّموه.

كبّلوه بالسلاسل. وطارت الأخبار.

ليكن فرح في جميع المدن. ليكن رقص وزغردات. ولتخيمْ الطمأنينة والدعة في سموات القرى التعبى.

فرح ورقص وطمأنينة، في المدن والقرى، في المخافر ودوائر الدولة وبيوت الآغوات، وليصدق الناس النبأ.

وفي عتمات الليالي، في الغابات والأودية، وعبر نوافذ بيوت الفلاحين الفقراء الضائعين تحت الشمس والليل، أنَّت الريح والحكايا حاملة رائحة الذي كان، ثم غاب.

وفي السجن عذّبوه، اقتلعوا أظافره، وكووا جسده بالنار.

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم ندي، واللاذقية ماتزال غافية تحت خدر ضباب خفيف، علّقوه في ساحة الشيخ ضاهر ولم يطلب شيئاً.

وغفا هو الآخر على كتف الفجر البارد.

قال الراوي: ولما انبثق الضوء، وعمّ الأرياف البعيدة، غامراً المدينة التي صحت. تجمع الناس في الساحة حول الجسد المصلوب في فراغ النهار الفضي، ورنوا ملياً إلى وجهه الأسمر المنكفئ، وعينيه العسليتين المغمضتين.

وخلافاً لما كتب على صدره، لم يخطر ببال إلا القليلين أن هذا الفلاح البائس المدلّى على خشبة الموت، قد تمرد ومات من أجل الحرية والأرض.

1968